

الجزء الأول
في أولها

د. فوري جعفر

الحاج صادق



البحر في السيرة النبوية في أولها إلى حفظ

د. فوري جعفر

قال الفرزدق - على ما ذكر الرواة - « كنت في المجلس الذي أنشد فيه عديُّ بن الرِّقَّاع كلمته :

عَرَفَ الدِّيَّارَ تَوَلَّيْهَا فَاَعْتَادَهَا . . .

وجريير الى جانبي . فقلت لجريير - مشيراً الى عدي مُسَخِّراً - من هذا الشامي؟
فلما دُفِّنا كلامه يئسنا منه . فلما بلغ إلى قوله : تُزْجِي أَغْنِ كَأَن إِبْرَةَ رَوْقِهِ . . .
وعديُّ كالمُستريح قال جريير : أَمَا تَرَاهُ يَسْكُبُ فِيهَا مِثْلًا ؟ فقلت يا لَكَمَ إِنَّهُ
يقول :

. . . قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فقال عديُّ : « قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا » . فقال جريير : أَكَانَ
سَمْعُكَ مَحْبُوءًا فِي صَدْرِهِ !!! فقلت : اسكُتْ . شَغَلَنِي سَبْكُكَ عَنْ جِدِّ الْكَلَامِ . «

وأنا أقول - مع الفرزدق - شغلني « علم الدماغ » عن جيد الكلام . فشكراً
لوزارة الثقافة والفنون التي هَيَّأت لي فرصة الاستمتاع بجيد الكلام والمساهمة في هذه
المناسبة التاريخية العظيمة بالتحدث عن « الجوانب السايكولوجية في أدب
الجاحظ » .

أيها الحفل الكريم : أرجو أن تسمحوا لي بإبداء بعض الملاحظات التمهيدية العامة قبل الدخول في صلب الموضوع الذي لم يُطرق في السابق على ما أعلم وهو - كما تعلمون - موضوع معقد متشابك الجوانب وطويل اضطررني إلى قراءة جميع ما وقع في يدي من كتب الجاحظ المنشورة التي ذكرتها في نهاية هذا البحث .

لا شك عندي في أن تقدير الجوانب السايكولوجية والأهمية الاجتماعية والأيدولوجية للأدب [من ناحية محتوى أدبه أو مضمونه ومن ناحية أناقة ألفاظه وغزارتها ورقة تعابيره ودقتها] يتوقف على النظر إلى تراث الأديب المعني نظرة تاريخية شاملة وعميقة في ضوء ظروفه الاجتماعية بالنسبة لمجتمعه وعصره . وهذا يستلزم أن يأخذ الباحث بعين الاعتبار عوامل ثلاثة كبرى متلاحمة ومتبادلة الأثر : فلا بد من النظر - أولاً - إلى طبيعة الفترة الزمنية التي يعيش فيها الأديب موضوع البحث من حيث خصائصها التاريخية البارزة المتميزة ومن ناحية التناقضات الاجتماعية الكبرى الشائعة أثناء تلك الفترة للكشف عن مدى تغلغل الأديب في أعماقها ومدى انعكاس ذلك التغلغل في أدبه بشكل واضح صريح أو ضمني . ولا بد - ثانياً - من إلمامه اللثام عن نزعة الأديب الاجتماعية العامة وخصائصه السايكولوجية وروابطه الأيدولوجية وانتاءاته السياسية والاقتصادية ومدى نضجه الفكري وحرارة مشاعره ومهارته الأدبية وأصالته الفنية الجمالية وسعة الأحكام التي يطلقها على الأحداث والأشخاص والظواهر المحيطة به وسلامة تلك الأحكام وعمق الاستنباطات الاجتماعية التي يتوصل إليها كما يبدو ذلك كله في نتاجه الأدبي . ولا بد - أخيراً - من النظر إلى فنه اللغوي وبراعته في التعبير عن آرائه في ضوء الأسلوب الأمثل الشائع في مجتمعه مع ملاحظة دقة ألفاظه وغزارتها وأناقته وانسجامها في العبارات والفقرات^(١) .

ولا شك عندي أيضاً في أن هناك ارتباطاً عضوياً وأثراً متبادلاً بين الأدب وعلم النفس على نسق ما هو موجود بين الأدب والسياسة وبين الأدب والاقتصاد والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع . وقد ثبت أيضاً وجود ارتباط وثيق بين الأدب والعلوم

(١) العبارات التي وردت في هذه الصفحة وفي الصفحات التي سبقتها مأخوذة بالنص في بحث للمؤلف مائل للطبع عنوانه «مع الحريري في مقاماته» .

الطبيعية لا سيما الفيزياء . وتحضرنا - في هذه المناسبة - ملاحظات عميقة وطريفة أبداها آينشتين قبيل وفاته عام ١٩٥٥ عندما قال : إن الفكر العلمي ينطوي دائماً على عنصر شعري وإنه تعلم من دوستويفيزكي الأديب الروسي الذي عاش في القرن الماضي أكثر مما تعلمه من نيوتن عالم الفيزياء البريطاني الذي عاش في القرن السابع عشر . . والعلاقة بين الخيال الممنح للأديب الأصيل وبين الفكر العلمي الأصيل تتجلى في الوقت الحاضر في القصص العلمية الخيالية sciencefiction . كما أن للصلة الوثيقة بين العلوم الطبيعية والأدب مضامين تربوية بالغة الخطورة في الوقت الحاضر تتضح إذا تذكرنا أن المعنيين بشؤون التربية - في مختلف الأقطار - يتحدثون عن ضرورة إجراء تبدلات واسعة وعميقة في نظام التعليم السائد وفي العملية التربوية ذاتها لصالح الرياضيات والعلوم الطبيعية في ضوء التقدم العلمي النظري والتكنولوجي المذهل الحديث . وموقفهم هذا معقول ومقبول ونابع في الأساس من طبيعة المرحلة التاريخية الراهنة . وحاجة الجيل الجديد إلى المعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية ضرورة ملحة لا تقل أهميتها عن حاجة المجتمع نفسه إلى العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية لضمان تقدمه المادي والثقافي على حد سواء . ولكن - مع ذلك وربما بسببه - فإن حاجة الجيل الجديد إلى الأدب بما فيه الفن ضرورية وملحة أيضاً وذلك لأن العلوم الطبيعية والأدب بما فيه الفن طرفا ثقافة إنسانية واحدة . عندئذ لا ينعزل الأدب بما فيه الفن [الذي هو سجل المشاعر الإنسانية إزاء الطبيعة والمجتمع والفرد] عن العلوم الطبيعية التي هي أساس التقدم المادي للحضارة الإنسانية .

لقد مررنا القول بأن للأدب صلة عضوية متبادلة الأثر بالسياسة والاقتصاد شأنه في هذا كشأن أوجه الحياة الفكرية الأخر . والصلة المشار إليها نشأت تاريخياً - بشكل أو بآخر - في مجتمع الرق وفي عهد الاقطاع . وهي تظهر اليوم في جميع المجتمعات بصرف النظر عن اختلاف أنظمتها السياسية والاقتصادية . وهذا هو بنظرنا جوهر مبدأ الالتزام في الأدب الذي هو في أساسه شكل من أشكال الانتماء أو الولاء السياسي والاقتصادي الذي يستند - بعد التحليل الدقيق - إلى نزعة فلسفية معينة يتخذها الأديب نقطة انطلاق في أعماله الأدبية . والالتزام - المشار إليه - يأخذ في مجال الأدب أحد شكلين متنافرين هما : الالتزام بمساندة الاستبداد أو الاضطهاد ونقيضه . وهذا يعني - بعبارة أخرى - أن الأديب يتخذ موقفاً خاصاً به

سلبياً أو إيجابياً [مقبولاً أو مرفوضاً بنظر غيره] إزاء الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه والذي ينعكس - بشكل أو بآخر - في أدبه بالتلميح أو عن طريق الرموز والألغاز أحياناً وبشكل ساخر صريح أحياناً آخر . وهذا الموقف يتجلى أولاً وقبل كل شيء في الجوانب السياسية والاقتصادية التي ينتقها الأديب من الواقع الاجتماعي السائد والتي يركّز اهتمامه فيها ويجسّدُها . كما يظهر أيضاً في إطرائه على بعض ما ينتقيه وفي شجبه نقيضه . وهنا تتضح نزعة الممالة للطغيان أو الاضطهاد ونقيضها . وقد يقع الأديب أثناء ذلك - دون قصد أحياناً - في تناقض ملحوظ أو ضمني عرضي أو طارئ يبدو في نتاجه الأدبي إذا ما طبّقت عليه مقاييس غيره ممن عاصروه أو جاؤوا من بعده . وكثيراً ما يحمل الأديب نفسه آراء مغلوطة جنباً إلى جنب مع آرائه الصحيحة . ومقياس مكانة الأديب وأصالته ليس هو بنظرنا مجرد وجود الآراء المغلوطة في حد ذاتها - حتى وإن كانت كثيرة ومتأصلة - بل هو موقعها أو مكانتها في مجمل نزعة العامة إزاء قضايا عصره ومجتمع الكبرى الملحة من جهة وتاريخ نشوء تلك الآراء المغلوطة عنده . فإذا كان اتجاهه العام سليماً في ملامحه الكبرى في مرحلة نضجه الأدبي فإن أخطاءه لا تقلل بنظرنا من مكانته الأدبية المرموقة^(٢) . ومن هذه الزاوية يبرز الجاحظ أمامنا كاتباً أصيلاً لامعاً وأديباً ممتازاً تقدماً بمقاييس عصره ومجتمعهم وبمقاييسنا الراهنة . كما أن الجاحظ لعب أيضاً دوراً إيجابياً تقدماً هائلاً في تاريخ النثر الفني العربي وبرهن على أنه الفنان الأول الأصيل الذي عالج - بأسلوب ساخر - موضوعات متنوعة ومهمة مستمدة من طبيعة الحياة الاجتماعية السائدة في عصره ومجتمعهم . كما كان أيضاً أديباً يتصف - كما سنرى - بقدرة عجيبة على التغلغل السايكولوجي في أعماق النفس البشرية في حالتها السوية الطبيعية المعتادة وفي حالتها المنحرفة كما ظهر ذلك في رسالة القيان وفي الأجزاء التي عثرنا عليها من كتاب اللصوص المفقود . ومن هذه الزاوية فإن تغلغل الجاحظ في أعماق النفس البشرية - وبخاصة في حالاتها الشاذة أو المنحرفة التي اتسمت بالقسوة اللا مشروعة إزاء الآخرين وبعدم الاكتراث بمشاعرهم - لا يقل أصالة وعمقاً - على ما نرى - عن تحليلات سايكولوجية عميقة مماثلة لحالات مشابهة لدى فئة من أبرز الأدباء في مجتمعات آخر عاشوا بعد الجاحظ بفترات زمنية متباعدة وفي طليعتهم شكسبير [١٥٦٤ - ١٦١٦] وبلزاك [١٧٩٩ - ١٨٥٠] وناكري [١٨١١ - ١٨٦٣] ودكنز

(٢) المصدر السابق المائل للطبع .

[١٨١٢ - ١٨٧٠] - وبخاصة في فترة نضجه الأدبي - وتولستوي [١٨٢٨ - ١٩١٠] ودستويفيتسكي [١٨٢١ - ١٨٨١] واميل زولا [١٨٤٠ - ١٩٠٢] وموبا: سان [١٨٥٠ - ١٨٩٣] وجيكوف [١٨٦٠ - ١٩٠٤] ومكسيم غوركي [١٨٦٨ - ١٩٣٦] وكتاب معاصرون آخرون تتعذر الإحاطة بهم مثلاً جيمس جويس وكافكا . ولولا الاستطراد لاستشهدنا بطائفة من الأمثلة تثبت وجهة ما ذهبنا إليه . ومن طريف ما لاحظناه - في هذا الصدد - هو أن الجاحظ وزملاءه المار ذكرهم كثيراً ما كانوا يتركون [إلى جانب القسوة المفرطة عند وصفهم السلوك المنحرف] للرأفة أو الناحية الإنسانية نصيباً واضحاً في سلوك الفرد المنحرف . وهذا واضح عند الجاحظ في رسالة « اللصوص » أو في الأجزاء غير المفقودة منها بعبارة أدق كما سنرى . فقد اتصف هؤلاء اللصوص المحترفين القساة بالأريحية والشهامة وبالعطف عند النساء والشيوخ والأطفال وبالعطف أيضاً على المحتاجين الذين سلبوا أموالهم . وهذا غلط من الأريحية والشهامة لا يحتاج إلى شرح أو تعليق .

لقد كان الجاحظ - بالإضافة الى ذلك - أدبياً يغلب عليه طابع الالتزام الاجتماعي والأيدولوجي ومن الناحية الفنية الجمالية اللغوية : أي أنه - بنظرنا - كان ينجح في الأعم الأغلب نحو الالتزام من ناحية محتوى أدبه أو مضمونه ومن ناحية أسلوب التعبير عنده . فقد كان ملتزماً - من حيث المحتوى الاجتماعي بكل ما هو جميل وأنيق في علاقات الناس واستهجان نقيضه . وكان ملتزماً أيضاً - من ناحية التعبير - بكل ما هو أنيق وجميل من حيث الألفاظ الرشيقة المترفة ومن حيث انتظامها في العبارات والفقرات (٣) .

كان أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ - على ما يقول الرواة - مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكيناني أحد النسابين . وكان جده أسود اللون يقال له فزارة اشتغل جماً لعمرو بن قلع . وسُمي الجاحظ لجحوظ عينيه أو نتوئتهما . توفي والده وهو صبي . وقد ولد في البصرة [سنة ١٦٣ هـ أو ٧٨٠ م] وتوفي فيها [عام ٢٥٥ هـ أو ٨٦٩ م] بعد أن عاش زهاء قرن . وهذا يعني أن فترة حياة الجاحظ استغرقت فترات حكم اثني عشر خليفة عباسي (١) وأن نضجه الفكري بدأ بالتبلور في (٢) المصدر السابق : المائل للطبع .

١ : فالجاحظ ولد في أواخر خلافة المنصور وتوفي عام مقتل المعتز . وشهد - بالطبع - خلافة المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز الذي بويع له عام ٢٥٥ و قتل في العام نفسه .

عهد المأمون وبلغ ذروته في عهد المعتصم والواثق والمتوكل . وقد تعاونت البصرة بمربّيها وعلمائها ونزعتها في الاعتزال مع مدينة السلام [التي أنشأها المنصور عام ١٤٦ هـ] واتخذها عاصمة للخلافة ومع سرّ من رأى التي أنشأها المعتصم واتخذها عاصمة للخلافة سنة ٢٢١ هـ] في تكوين الجاحظ أدبياً فذاً وعلمياً من أعلام علم الكلام البارزين - كشيخه النظام^(١) - وشخصية اجتماعية مرموقة . وقد هيأت له حياته في الحواضر الكبرى الثلاث فرصة نادرة للدراسة والتأليف والاتصال برجال الفكر والسياسة والأدب وبالمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل فنال جوائزهم وتمتّع برعايتهم وتشجيعهم . وهذا واضح بصورة خاصة في بغداد وسرّ من رأى في زمن المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل عبر رجال الأدب والسياسة البارزين [ابراهيم بن العباس الصولي والفتح بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن دؤاد . كما هيأت له حياته في بغداد وسرّ من رأى فرصة نادرة للجاه والثراء . قال ميمون بن هرون - على ما ذكر ياقوت في معجم الأدباء - « قلت للجاحظ : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسّم وقال : إنّما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار . أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديت كتاب الزرع والنخيل إلى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعني ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . » وقال الجاحظ أيضاً « ذكّرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلمّا رأي استبشع نظري أمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني . »

- ٣ -

تلك ملاحظات عامة أوردناها تمهيداً للدخول في صميم الموضوع :

« الجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ . » وهو موضوع مؤقت - كما هو واضح - من ركنين متلاحمين ومتميّزين في الوقت نفسه هما : « الجوانب السايكولوجية » من ناحية و« أدب الجاحظ » من ناحية أخرى . والمقصود بالجوانب السايكولوجية - في هذه الدراسة - النواحي النفسية الذاتية الخاصة بالمشاعر أو الانفعالات التي أبدتها الجاحظ بشكل صريح أو ضمني - مباشر أو غير مباشر - إزاء الشخصيات المعروفة - والوهمية المفترضة - التي تحدّث عنها الجاحظ وعن الظروف والملابسات التي أحاطت

بها من جهة وبقدرته العجيبة على التغلغل في أعماقها والكشف عن خلجات النفس عند كل منها وبراعته في تلمُّص شخصياتها والنطق باسمها سواء أكان ذلك بلسان الحال أم بلسان المقال من جهة أخرى . أمَّا الجانب الآخر من عنوان هذا البحث الذي هو « أدب الجاحظ » فالمقصود به - لأغراض هذه الدراسة أيضاً - الموضوعات الكثيرة والمتنوعة المقترنة باسمه بصرف النظر عما إذا كانت تلك الموضوعات أدبية محضة بالمعنى المألوف أو غير أدبية وذلك لأن الطابع الأدبي هو الغالب عليها . فالجاحظ - كما هو معلوم - أديب ولغوي ومتكلم ومعتزلي وموسوعي استوعب أهم معارف مجتمعه وعصره وألف فيها . وقد اتضحت الجوانب السايكولوجية بشكلها المتبلور لديه في كتاب البخلاء وفي رسالة التربيع والتدوير وفي رسالة القيان وفي الأجزاء غير المفقودة في كتاب اللصوص كما سنرى . ربما أن الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ تستلزم أولاً وقبل كل شيء التحدث عن الجاحظ نفسه من حيث هو أديب ومفكر وعن ظروفه وعلاقاته الاجتماعية فلا بدُّ إذن أن نبدأ من البداية .

- ٤ -

لقد تخطى اسم الجاحظ أسماء لامعة كثيرة عاصرتة وجاءت من بعده وسبقته في علمنا العربي الإسلامي وتخطى أيضاً حدود الزمان والمكان وأصبح في عداد الأدباء الذين اتصفوا بالخلود . والجاحظ ينجح في أسلوبه نحو السخرية أو التهكم والازدراء ويتصف بالمرح وروح الدُّعابة وبالقدرة العجيبة على الاحتجاج للشيء ونقيضه . وله خيال أدبي واسع ومبدع مكنه من ابتداع كثير من الأحداث والشخصيات وتزويقها والمبالغة في إبرازها وتهويلها إلى درجة مفزعة في أغلب الأحيان . وللجاحظ أيضاً قدرة عجيبة على الملاحظة والاستقصاء والدقة في تصوير الأمور المادية المحسوسة وخلجات النفس البشرية والتغلغل في أعماقها وفي خلط الجد بالهزل بشكل يتعدى على المرء أن يميز بينهما في كثير من الأحيان .

- ٥ -

لم ينغمز الجاحظ انغماراً مباشراً في الشؤون السياسية الكبرى آنذاك . ولكنه أقحم نفسه في ملاسياتها بطريقة غير مباشرة عبر اتصالاته بالشخصيات البارزة المتنافسة وفي طليعتها ثمامة بن أشرس وابراهيم بن العباس الصولي ومحمد بن الملك الزيات والفتح بن خاقان واحمد بن دؤاد . كما أنه أيضاً أقحم نفسه في خضم

الملايسات السياسية - بطريقة غير مباشرة أيضاً - عن طريق مواقفه المؤيدة تأييداً تاماً ومطلقاً للمذهب الاعتزالي الذي اعتنقه في البصرة بتأثير استاذة النظام ودافع عنه بحرارة طول فترة حكم المأمون والمعتمد والواثق وتشاغل عنه بشكل مقصود وانهمك في أمور فكرية أخرى أثناء مناوئة مذهب الاعتزال - مناوئة سياسية بالدرجة الأولى - ومطاردة أصحابه في عهد المتوكل .

لقد كانت صلة الجاحظ بتامة بن أشرس فكرية واجتماعية وثيقة . وتامة هذا هو أحد معتزلة البصرة البارزين الذين قدموا بغداد في عهد الرشيد والمأمون . ولتامة اخبار أدبية طريفة يرويها الجاحظ في أمهات كتبه لا سيما في كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء . وقد حبس تامة ثم أطلق سراحه (٣) . وفي عهد المأمون ارتفعت مكانته وعرضت عليه الوزارة فاعتذر عن قبولها . وهو الذي قرب يحيى بن أكرم (٤) الى المأمون الذي عينه قاضياً للبصرة . وكان تامة حلقة الوصل

(٢) النظام هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام البصري . وإليه تُنسب الفرقة النظامية المعروفة في مذهب الاعتزال وهو شيخ الجاحظ وقد توفي في خلافة المعتمد .

(٣) ومن الطريف أن نشر هنا إلى أن الرشيد سأل يوماً جلساءه وفيهم تامة بن أشرس - بعد أن أطلععه الرشيد من الحبس - عن أسوأ الناس حالاً فأجاب تامة « أسوأ الناس حالاً عاقل يجري عليه حكم جاهل . » ولكنه عقب على ذلك فوراً عندما تبين الغضب في وجه الرشيد لظنه أنه المعني بذلك فقال « يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعتُ بحيث أردت . وإنما عيّنتُ حادثة وهي أن سلماً الأبرشي - وكان سجاناً وأنا في السجن وكان يقرأ في المصحف » ويل يومئذ للمكذبين - بفتح الذال مع تشديدها - فقلت له المكذبين - بكسر الذال مع تشديدها - وهم الرُّسل .

والمكذوبون - بتشديد الذال المكسورة - هم الكفار . فأقرأها : « ويل يومئذ للمكذبين بالتشديد مع الكسر . فقال سلام : قيل لي من قبل إنك زنديق ولم أقبل . . . ثم ضيق علي أشد التضيق . » فجعل الرشيد يضحك . ومن طريف ما يروي عن تامة أن رجلاً قال له : إن لي إليك حاجة . فقال تامة : ولي إليك حاجة . قال الرجل : وما هي ؟ قال لا أذكرها حتى تتضمن قضاءها . قال قد فعلت . قال تامة : حاجتي إليك ألا تسألني هذه الحاجة . قال الرجل : رجعتُ عنها أعطيتك . قال تامة لكنني لا أرد ما أخذت .

(٤) وعندما ولي يحيى بن أكرم القضاء بالبصرة لم تتجاوز سنة السادسة والعشرين . فاستصغره أهل البصرة ، فقال أحدهم معرضاً به : كم سن القاضي ؟ فعلم يحيى أنه استصغره . فقال : أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله قاضياً على أهل مكة يوم الفتح . وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين أرسله النبي قاضياً على أهل اليمن . وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولّاه عمر قاضياً على أهل البصرة . وكان أكرم من خصوم المعتزلة وقد أعفي عن القضاء في عهد الواثق ولزم داره . وعندما بدأ عهد الاعتزال بالانحسار في بداية عهد المتوكل وقلج القاضي أحمد بن أبي نؤاد - وحلّ ابنه محمد أبو الوليد محله فترة قصيرة ثم أقصاه المتوكل وحبسه مع اخوته وصادر أمواهم استدعى يحيى بن أكرم وأسند إليه منصب القضاء .

بين المأمون والجاحظ وعن طريقه - على ما يبدو - وصل إلى المأمون كتاب الجاحظ « في الإمامة » وبثأثيره أسندت إلى الجاحظ إدارة « ديوان الرسائل » التي بقي فيها ثلاثة أيام فقط ثم تركها : فعلق سهل بن هرون على ذلك بقوله « لو ثبت الجاحظ في هذا الديوان لأفل نجم الكتاب ». وقد كتب الجاحظ عن اتصاله بالمأمون ومنزلته عنده ما يلي [البيان والتبيين : ج ٣ ص ٣٧٤ - ٣٧٥] « ولما قرأ المأمون كتيبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به وصرت إليه أمر اليزيدي^(٥) بالنظر فيها ليخبره عنها قال لي : قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة قلنا له : قد تُرَبِّي الصفة على العيان . فلما رأيتها رأيت العيان أربى على الصفة . فلما فليتها أربى الفلي على العيان كما أربى العيان على الصفة . »

وفي عهد المأمون أيضاً توثقت الصلة بين الجاحظ والأديب والشاعر - المقلد المبدع - إبراهيم بن العباس الصولي^(٦) أثناء توليه ديوان الرسائل في عهد المأمون .

(٥) اليزيدي : أبو محمد يحيى بن المبارك البصري النحوي اللغوي أحد القراء والفصحاء . أخذ عن الخليل . قال ابن المنادي أكثر من السؤال عن أبي محمد اليزيدي وعلمه من الصدق ومنزلته من الثقة لعدة من شيوخنا بعضهم أهل عربية وبعضهم أهل قرآن وحديث . فقالوا هو ثقة صدوق لا يرفع عن سماع ولا يرغب عنه في شيء غير ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة . وكان يجلس - أيام الرشيد - مع الكسائي في مسجد واحد في بغداد يُقرئان الناس . وله تصانيف كثيرة منها : كتاب النوادر في اللغة . وكتاب المقصور والممدود . وكتاب النقط والشكل . ومختصر في النحو ألفه لبعض ولد المأمون . وقد عُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور الحميري - خال المهدي - وتأديبه ولده . وقد نُسب إليه . ثم اتصل بالرشيد وأصبح مؤدباً للمأمون . وكان أحد كبار القراء . وقد توفي بخراسان عام ٢٠٢ هـ . ومن طريف ما روي عنه - أثناء تأديبه المأمون في عهد الرشيد - أنه قال « كنت أودب المأمون . . . فأتيت يوماً وهو داخل . . . فوجهت إليه بعض غلما نه . فابطأ . ثم وجهت إليه آخر . فابطأ : فقلت لسعيد الجوهري : إن هذا الفتى ربما تأخر وتشاغل بالبطالة !! فقال قومه بالأدب . . . فلما خرج أمرت بحمله وضربته تسع درر [بكسر الدال وفتح الراء جمع درة بكسر الدال وفتح الراء المشددة : أي العصا الصغيرة أو السوط] . فأنه ليدلك عينيه من أثر البكاء إذا قيل جعفر بن يحيى فاستأذن على المأمون . فأخذ المأمون منديلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه وقام إلى فراشه وقعد عليه متربعا . ثم قال يدخل جعفر . فدخل فقامت أنا عن المجلس . . . ثم سألت عني - بعد أن خرج جعفر - فقال خذ ما بقي من هاري . فقلت أيها الأمير لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر . ولو فعلت ذلك لتكر لي . فقال المأمون إن الله أتراني - يا أبا محمد - أطلع الرشيد في هذه ؟ فكيف جعفر أطلع على أنني احتاج إلى أدب ؟ يغفر الله لك . خذ في أمرك فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً ولو عدت في كل مرة . »

(٦) الصولي - إبراهيم بن العباس - منسوب إلى جده صول أحد أمراء جرجان الذي اعتنق الإسلام على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة . وإبراهيم هذا هو عم أبي بكر الصولي = الشطرنجي - صاحب كتاب الوزراء . وقد اتصل إبراهيم - وشقيقه عبد الله - بذي الرياستين - الفضل بن سهل ثم تقلد ديوان

وكان الجاحظ يخلفه فيه أثناء تغيبه في شأن من شؤونه حتى لُقّب الجاحظ بخليفة

==

الضياع والنفقات بسرّ من رأى . وكان شاعراً رقيقاً وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة . ومن رقيق شعره في الغزل .

دَنْتُ من أناسٍ عن ثناء زيارةٍ . وشَطَّ بليلي عن دُئوٍ مَزارها
وإنَّ مقيماتٍ بمنعرج اللوى . لأقربُ من ليلي وهاتيك دارها
وفي الرثاء :

كنتُ السَّوادَ لمقلتي فبكى عليك الناظرُ
من شاء بعدك فليمتْ فعليك كنتُ أحاذرُ
وفي الجلد والتحمل :

ولرب نازلةٍ يضمن بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلماً استحكمت حلقاتها فُرحتْ وكان يظنّها لا تُفْرَجُ
وفي التقل :

لا يمنعُكَ خَفَضُ العيش في دَعَةٍ نُزُوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطان
تلقى بكل بلادٍ إن حللت بها أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطان
وقال يصف نفسه :

أميل مع الذمّام على ابن أُمِّي وأخذ للصدّيق من الشقيق
وإنَّ أَلْفَيْتَنِي حُرّاً مُطاعاً فأنتَ واجدي عبدَ الصّدّيق
أُفرِّق ما بين معروفٍ وميٍّ وأجمع بين مالي والحقوق

ولما عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل وندب له عبد العزيز بن عمران وآخرين ثمّي الخبر إلى الفضل فأظهره على المأمون وعاتبه عليه . فلما قُتل الفضل وقُتل المأمون قتلته سأل : من أين سقط الخبر إلى الفضل ؟ فعرف أنه من جهة إبراهيم بن العباس فطلبه فاستتر . وكان إبراهيم عرف الخبر من جهة عبد العزيز بن عمران وكان الفضل استكتب إبراهيم لعبد العزيز بن عمران فأخبر به الفضل .
ولما عقد المتوكل لولاء العهد من ولده وأذن للناس فدخلوا إليه مهتئين . فلما تكاملوا بين يديه مثل إبراهيم بن العباس وأنشد :

ولما بدا جعفرُ في الخميس بين المَظَلِّ وبين العروس

بدا لا بساً بهما حلة أزيلت بها طالعات النحوس
ولما بدا بين أحبابه ولأه العهد وعزّ النفوس
غدا قمرا بين أقماره وشمساً مكللة بالشموس

ثم أقبل على ولأه العهد وقال :

الصُّوْلِي فِي دِيْوَانِ الرِّسَالِ . وقد أهدى الجاحظ الصُّوْلِي كتاب « الزرع والنخل

أُضْحِتْ عُرَى الْإِسْلَامَ وَهِيَ مَنْوُطَةٌ بِالنَّصْرِ وَالْأَعْزَارِ وَالتَّائِيدِ
بِخَلِيفَةٍ مِنْ هَاشِمٍ وَثَلَاثَةِ كَنْفَوَاتٍ الْخِلَافَةِ مِنْ وَلاَةِ عَهْدٍ
رَفَعَتْهُمْ الْأَيَّامَ وَارْتَفَعُوا بِهِ فَسَعُوا بِأَكْرَمِ أَنْفُسِهِمْ وَجَدُودِ

وكان إبراهيم بن العباس الصولي صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات قبل الاستيلاء . فلما استوزر
المتعصم ابن الزيات تنكر هذا لصديقه وأعرض عنه وبأشر بإيذائه وإلى هذا الموقف المتبدل أشار الصولي
بقوله :

وَكُنْتُ أَخِي رَحْنَاءَ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صُرْتُ حَرْباً عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذْمُ إِلَيْكَ الزَّمَانَ فَاصْبَحْتُ مِنْكَ أَذْمُ الزَّمَانَا
وَكُنْتُ أَعْدُكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا

وقد صادره ابن الزيات يالْف ألف وخمسة أَلْف دينار (ابن الأثير : الكامل في التاريخ / المجلد
السابع / دار بيروت / ١٩٦٥ ص ١٠) وما أضرم نار البغضاء بينهما أن محمد بن عبد

وما أضرم نار البغضاء بينهما أن محمد بن عبد الملك الزيات أودع مალأ عظيماً وجوهراً نفيساً : وقد رأى
تغيراً في الواقع فخافه وفرق ذلك في ثقافته من أهل الكرخ . فنظم إبراهيم بن العباس أبياتاً بهذا المعنى
وأشاعها حتى بلغت الواقع ليغريه به :

بِجَانِبِ الْكَرْخِ عِنْدَ قَوْمٍ أَنْتَ بِمَا عِنْدَهُمْ خَبِيرٌ
وَلَمَّا عَزَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِي عَنِ الْأَهْوَازِ فِي أَيَّامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ اعْتَقَلَ بِهَا وَأَوْذَى
بِتَحْرِيزِ ابْنِ الزِّيَّاتِ .
وكان يؤمل منه أن يسامحه ويطلقه . فكتب إليه :

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَعَرٌ وَأَنْكَرَ صَاحِبٌ وَسُلْطَ أَعْدَاءُ وَغَابَ نَصِيرٌ
تَكُونُ عَنِ الْأَهْوَازِ دَارِي بَنَجْوَةٍ وَلَكِنْ مَقَادِيرُ جَرَتْ وَأُمُورٌ
وَأُنْسِي لِأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا لِأَفْضَلِ مَا يُرْجَى أَخٌ وَوَزِيرٌ

وكتب أيضاً إليه يستعطفه « كتبت إليك وقد بلغت المدة المحزّ وعَدَت الأيام بك عليّ بعد عدوي بك
عليها . وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها وتكفّ عند أذاها . فصرت عليّ أضرم منها
وكفّ الصديق عن نصرتي خوفاً منك وبادر إليّ العدو تقرباً إليك .

ثم هجاه بقوله :

أَبَا جَعْفَرٍ خَفَّ خَفْضَةً بَعْدَ رَفْعَةٍ وَقَصُرَ قَلِيلاً مِنْ مَدَى غُلُوبِكَا
لَيْسَ كَانَ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمًا حَوَيْتَهُ فَإِنْ رَجَائِي فِي غَلَبِ كَرْجَائِكَا
وَقَالَ أَيْضاً :

دَعَاؤُكَ فِي بِلَوَى أَلَمْتُ صُرُوفَهَا فَأَوَقَدْتَ مِنْ ضِغْنٍ عَلَيَّ سَعِيرَهَا

والزيتون والأعناب » وأجازه عليه خمسة آلاف دينار كما بينا . غير أن ذلك الإهداء أثار حفيظة محمد بن عبد الملك الزيات وأدّى - بعد ذلك - بالجاحظ الى أن يوجه لابن الزيات رسالته المرسومة « في الجذ والهزل » التي سيأتي ذكرها . واتصل الجاحظ أيضاً بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(٦) وقدم له - كما بينا - كتاب الحيوان فأجازه

فأنسي إذا أدعوك عند مَلْمة كداعية عند القبور نصيرها
وقال يهجوهُ أيضاً :

قَدَرْتُ . فلم تقرر عدوا بقدره وسُمتَ بها اخوانك الذلُّ والرُغْمَا
وكنْتَ مَلِيئاً بالتي قد يَعَافُهَا من الناس من يَأبَى الدِّيْقَةَ والذِّمَّأ

ومن طريف ما يروى أن إبراهيم بن العباس قال لأبي تمام وقد أنشده شعراً له في المعتصم : يا أبا تمام
أمرأ الكلام رعيّة لإحسانك . فقال له أبو تمام : ذلك لأنني أستضيء بك وأرد شريعتك . وقد توفي
إبراهيم الصولي سنة ٢٤٣ هـ وكان قبل ذلك عندما بلغه موت ابن الزيات وقال :

لَمَّا أَتَانِي خَبَرُ الزِّيَاتِ وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْأَمَوَاتِ
أَيَقُنْتُ أَنَّ مَوْتَهُ حَيَاتِي

(٧) وابن الزيات هذا مدحه أبو تمام بقصيدة عصماء وردت فيها الأبيات الرائعة الآتية في وصف
القلم :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي يُشْبِهُهُ : تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِيِّ وَالْمُفَاضِلُ
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ : وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلِ
لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنْ وَقَعَهَا : بِأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلِ
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَطَقَّتْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ : وَأَعْمَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلِ
إِذَا مَا امْتَطَى الْخَمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ : عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلِ
أَطَاعَتُهُ أَطْرَافُ الْقَنَآ وَتَعَرَّضَتْ : لِنَجْوَاهُ تَقْرِيسُ الْخِيَامِ الْحِجَافِلِ
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخَنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ : ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثِ الْأَنَامِلِ
رَأَيْتُ عَجِيْباً شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ : ضَنْئِي رَسْمِيَّ خَطْبُهُ وَهُوَ فَاحِلِ

ولابن الزيات منزلة رفيعة عند الجاحظ اتضحت في تقديمه كتاب الحيوان، له وفي الملاحظات التالية
[زهر الآداب ص ٥٣٩] :

« قال الجاحظ تشاغلْتُ مع الحسن بن وهب أخِي سليمان بن وهب بشرب النبيذ . فطلبني محمد بن
عبد الملك الزيات لمؤانسته فأخبر باتصال شغلني مع الحسن بن وهب . فتنكر لي وتلوّث عليّ . فكتبْتُ إليه
رقعة نسختها : « أعاذك الله من سوء الغضب وعصمتك من سرِّ الهوى وصرف ما أعارك من القوة إلى
حب الإنصاف وترجع في قلبك إيثار الأناة . فقد خِفْتُ - أيدك الله أن أكون عندك من المنسويين إلى نَزَقِ
السفهاء ومجانبة سبُل الحكماء . . . فإن كنت اجتراء عليك - أصلحك الله - فلك أجرتي إلا لأن دوام
تغافلِكَ عني شبيه بالإهمال الذي بدرت الإغفال . والعفو المتابع يؤمن من المكافاة . . . فإن كنت لا تهَبِ

عليه خمسة آلاف دينار . وابن الزيات خصم لدود للصولي . واتصل الجاحظ كذلك بالقاضي احمد بن أبي دؤاد^(٦) وهو أحد خصوم ابن الزيات وقدم له - كما ذكرنا - كتاب

عفاي - أيدك الله - لخدمة فهية لا ياديك عندي فإن النعمة تشفع في النعمة ، والأفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة . والأفعل ذلك لحسن الأحدث . . . وأعلم - أيدك الله - أن شين غضبك علي كزين صفحك عني وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك لحياة ذكرك مع افضال سببي لك . وأعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم .

ويبدو أن عبد الملك بن الزيات هو الذي أغرى الجاحظ ربما بطريقة غير مباشرة بوضع رسالة التبريع والتدوير التي هاجم فيها بعنف - أحمد بن عبد الوهاب . ودليلاً على ذلك ما رواه ابن الأثير في المجلد السابع من الكامل في التاريخ (دار بيروت / ١٩٦٥ / ص ٣٢) « قال أحمد بن الوهاب في الواثق :

أبت دار الأحياء أن تبينا أجذك ما رأيت لها مئينا
تقطع حسرة من حب ليلى نفس ما أئسن ولا جرينا

فصنعت فيه علم - جارية صالح بن عبد الوهاب شقيق أحمد - لحنا فغناه زرزور الكبير للواثق فسأله : لمن هذا ؟ فقال لعلم . فأحضر صالحاً وطلب منه شراءها فأهداها له . فعوضه خمسة آلاف دينار فمطله بها ابن الزيات وزير الواثق - فأعادت علم الصوت . فقال الواثق بارك الله عليك وعلى من ربك . فقالت ما ينفع من رباني : أمرت له بشيء فلم يصل إليه .

فكتب إلى ابن الزيات يأمره بليصال المال إليه . وأضعفه له .

لقد مر بنا ذكر فتك المتوكل بابن الزيات ولم نشر العامل الرئيس في ذلك . قال ابن الأثير (المصدر نفسه ص ٣٦ - ٣٧) موضحاً ذلك « ثم دخلت سنة ٢٣٣ وفيها قبض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحجسه . وكان سببه أن الواثق استوزر ابن الزيات وقوض الأمور كلها إليه . وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر المتوكل . . فأتى المتوكل إلى ابن الزيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه . فوقف بين يديه لا يكلمه . ثم أشار عليه بالقعود . فلما فرغ من الكتب التي بين يديه التفت إليه كالمتهدد وقال ما جاء بك ؟ قال جئت أسأل أمير المؤمنين الرضى عني . فقال لمن حوله أنظروا يغضب أخاه ثم يسألني أن أسترضيه له . اذهب فإذا صلحت رضي عنك . فقام من عنده حزناً . وعندما تولى المتوكل الخلافة وهو شاب لم يتجاوز عمره السادسة والعشرين بعد وفاة والده الواثق عام ٢٣٢ فتك بابن الزيات بعد توليه الخلافة بأقل من عام وأمر بإبقائه في السور .

(٨) وكان أحمد بن أبي دؤاد وثيق الصلة بالمتوكل قبل توليه الخلافة وقد وقف من الجفوة بين الواثق قبل خلافته والمتوكل موقفاً مغايراً لموقف ابن الزيات الذي ذكره ابن الأثير . وذلك أن المتوكل عندما أمره ابن الزيات بالخروج من حضرة الواثق - على ما يقول ابن الأثير - المصدر نفسه - « قام من عنده حزناً فأتى أحمد بن أبي دؤاد . فقام له أحمد واستقبله على باب البيت وقبله . وقال ما حاجتك جعلت فداك ؟ قال جئت لتسترضي أمير المؤمنين لي . قال أفعل ونعمة عين وكرامة . فكلم أحمد الواثق به فوعده ولم يرض عنه . ثم كلمه فيه ثانية فرضي عنه وكساه . » وعندما توفي الواثق سنة ٢٣٢ بويح للمتوكل بالخلافة وقد لعب ابن أبي دؤاد الدور الأول والأهم في ذلك كما قال ابن الأثير (المصدر نفسه ص ٣٣ - ٣٤) « وسبب خلافة المتوكل أنه لما مات الواثق حضر الدار أحمد بن أبي دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرج وابن الزيات . . . وعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد وقصير . . . فقال ووصيف أما تتقون الله . . . تولون هذه

البيان والتبيين فأجازه عليه خمسة آلاف دينار . وقد مر بنا جواب الجاحظ لابن هرولي

الخلافة . . . فتناظروا فيمن يولون . . . ثم أحضر محمد . فلما حضر إليه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبل عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . ثم عُسل الوائق وصُلِّي عليه ودُفِن . . . وكان عمر المتوكل يوم بوبع ستة وعشرين سنة وأراد ابن الزيات أن يلقيه المنتصر فقال أحمد بن أبي دؤاد قد رأيت لقباً أرجو أن يكون موافقاً وهو المتوكل على الله فأمر بإمضائه فكتب به إلى الأفاق . »

وقد ولد ابن أبي دؤاد في البصرة عام ١٦٠ هـ وتوفي عام ٢٤٠ هـ ومن مروياته - وهي كثيرة أن المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة الفراتية وأحضر السياف والنطع وأمر بضرب عنقه فقال ابن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين سبق السياف العذل فتان في أمره فهو مظلوم . فعفا المعتصم عنه . ومنها أيضاً ما ذكره أبو العيناء : أن الإفشين كان يحسد أبا دؤاد - القاسم بن عيسى - للعربية والشجاعة . فاحتال عليه حتى شهَّد عليه زوراً ، بجناية فجلس له وأحضر السياف لقتله . وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر فركب من وقته مع من حضر من عدوله . فدخل على الإفشين وقد جيء بأبي دؤاد ليقتل فوقف ابن أبي دؤاد وقال للإفشين : إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك أن لا تحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تسلمه إلي حياً . ثم التفت إلى العدول وقال أشهدوا أنني قد أدت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافي . فقالوا شهدنا . وخرج وصار إلى المعتصم من وقته وفاء يا أمير المؤمنين قد أدت عنك رسالة لم تقلها لي ما اعتد بعمل خير خيراً منها . ثم أخبره الخبر . فصور رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووهب له وعُف الإفشين فيما عزم عليه . وله مواقف مشهودة في القضاء منها (زهر الآداب ص ٢٥٠) الموقف الآتي : « تنازع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار بناحية الشواد . فارتى إبراهيم على ابن بختيشوع وأغلظله . فأحفظ ذلك ابن أبي دؤاد فقال يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرأة فلا أعلمن أنك رفعت صوتاً ولا أشرت يداً » . وقد مدح الشعراء ابن أبي دؤاد وفي طليعتهم أبو تمام الذي قال فيه من قصيدة رقيقة :

سقى عهد الحمى سبك العهاد	وروى حاضر منه وباد
لقد أنست مساوي كل دهر	محاسن أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الأفاق إلا	ومن جدواك راحلتي وزادي
مقيم الظن عندك والأمان	وان قلقت ركابي في البلاد

ومن طريف ما يروى عن البغضاء بين أبي دؤاد وابن الزيات أن شاعراً هجا ابن الزيات بقصيدة بلغت أبياتها سبعين بيتاً فبلغ خبرها القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال :

أحسن من سبعين بيتاً هجا	جميعك عنه صن في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة	تغسل عنه وضّر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك فقال معرضاً بأحد أجداد القاضي الذي كان يبيع القار :

يا ذا الذي يطمع في هجونا	عرضت نفسك للموت
الزيت لا يزري بأحسابنا	أحسابنا معروفة البيت
فترثم الملك فلم ننقِه	حتى غسلنا القار بالزيت

وقد فُجَّح ابن أبي دؤاد في أول خلافة المتوكل فحل محله ولده محمد أبو الوليد . ولكن سرعان ما سقط عليه المتوكل فعزله عن القضاء وحبه مع أخيه وصادها وأعاد القضاء إلى يحيى بن أكثم .

الذي سأله عما إذا كانت له ضيعة بالبصرة لأنه شاهد عليه إمارات الترف والرخاء .
ومن طريف ما يروى عن الجاحظ - في هذه المناسبة - انه عندما سأله أحدهم عن حاله
أجاب : « سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً : حالي أن الوزير يتكلم
برأيي وينفذ أمري ويؤثر الخليفة ايصالات لي وأكل من لحم الطير أسمتها والبس من
الثياب أفخرها وأجلس على ألين الطبري واتكأ على هذا الريش . »

- ٦ -

ذكرنا أن الجاحظ اتصل بابن الزيات الذي توثقت صلته به أثناء حكم الواثق
الذي حكمه في رقاب الناس وأمر أصحابه أن ينهضوا له إذا دخل عليه ولم يرخص
لأحد . فاشتد الأمر على القاضي أحمد بن أبي دؤاد الذي بينه وبين الوزير عداوة
وتنافس . ولم يجد القاضي بخلاف أمر الخليفة سبيلاً . فوكل أحد غلمان به مراقبة
موافاة الوزير . فاذا أخبر بقدمه نهض يركع . فقال ابن الزيات :

صلى الضحى لما استساغ عداوتي وأراه يُسك بعدها ويصوم
لا تعدين عداوة مسمومة تركتك تقعد بعدها وتقوم

وابن الزيات هذا هو صاحب « التنور » المعروف الذي أعدّه لتعذيب خصومه
[ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣٧ : « وفيه مسامير حديد أطرافها إلى
داخل التنور . وتمنع من يكون فيه من الحركة . وكان ضيقاً بحيث أن الانسان كان
يُدُّ يديه الى فوق رأسه ليقدر على دخوله لضيقه . ولا يقدر من يكون فيه أن
يجلس »] . وعندما قبض المتوكل على ابن الزيات وألقاه في ذلك التنور هرب الجاحظ
إلى البصرة متخفياً . فقيل له : هربت !!! فقال : خفت « أن أكون ثاني اثنين اذ
هما في التنور » .

- ٧ -

واتصل الجاحظ أيضاً بقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد أحد خصوم ابن الزيات
كما رأينا . وأحمد هذا من أصحاب المروءة والفضل والعلم على ما يقول الرواة . وهو
من أصحاب واصل بن عطاء ومن القائلين بخلق القرآن . استدعاه المأمون مرة
عندما جرى بمجلسه ذكر الذين بايعوا من الأنصار ليلة العقبة واختلف الحاضرون في
ذلك . فدخل أحمد فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم وكنائهم وأنسابهم . فأعجب به

المأمون وولاه القضاء وأوصى المعتصم - من بعده - بتقريبه والاعتماد عليه . وعندما هرب الجاحظ إلى البصرة متخفياً كما ذكرنا بعد الفتك بابن الزيات قُبِضَ عليه وجيء به مقيداً إلى ابن أبي دؤاد فنظر إليه شزراً وقال بغضب « والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة مُقدراً للمساويء . وما فتّني باستصلاحي لك . ولكن الأيام لا تُصلح منك لفساد طويّتك ورداءة داخلتك . » فقال له الجاحظ - بمنطقه ان بالكتيكي - : « خَفَّفْ عليك - أيّدك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لي عليك . ولأن أسيء وتحسن أحسن من أن أحسن وتُسيء . وأن تعفو عني - في حال قدرتك - أجمل من الانتقام مني . » فقال ابن أبي دؤاد « قَبَحَكَ الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام . . . ما تأويل هذه الآية ؟ وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهُ اليَمُّ شديد . » قال الجاحظ : تلاوتها تأويلها أعزَّ الله القاضي . فقال القاضي جيئوا بحدّاد . فقال الجاحظ : أعزَّ الله . القاضي : لِيَفُكَّ عني أو ليزيدني ؟ فقال بل يَفُكُّ عنك . . . ثم قال القاضي لمحمد بن منصور وكان حاضراً : « أنا أثق بظُرفه ولا أثق بدينه . . . يا غلام سرِّ به إلى الحمام وأمِطْ عنه الأذى . »

- ٨ -

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان - وزير المتوكل وأقرب الناس إليه - وقد قُتل معه سنة ٢٤٧ هـ . وكان الفتح من أكابر الساسة والشعراء والعلماء في زمانه . وله تصانيف كثيرة . وقد مدحه البحري بأكثر من ثلاثين قصيدة من غرر شعره . وعن طريق الفتح تقرَّب الجاحظ إلى المتوكل . وبتأثيره أيضاً وضع الجاحظ رسالته « في مناقب الترك » . التي سببت له بعض الحرج . وبتحريضه أيضاً وضع الجاحظ رسالته « في الرد على النصارى » التي أصبحت موضع أخذ ورد^(٩) .

(٩) ومن مؤلفات الفتح بن خاقان وهي كثيرة « كتاب الصيد والجوارح » وكتاب « الروضة والزهر » وكتاب « البستان » وكتاب « أخلاق الملوك » . والفتح بن خاقان هذا هو غير الفتح بن خاقان صاحب « فلائذ العقيان » . وقد ذكره ياقوت في معجم الأدباء - عند تحذنه عن الجاحظ - نص الرسالة التي بعث بها الفتح إلى الجاحظ يغيره بتأليف رسالته في الرد على النصارى وهذه فقرات من تلك الرسالة : « ان أمير المؤمنين يجِدُّ بك ويهشُّ عند ذكرك » وقد كان القي إلى من هذا عنوانه فردّك في نفسه . . فاعرف هذا لي واعتقد هذه المِنة على كتاب الرد على النصارى وأفرغ منه وعجلْ به إليّ . »

عُرف الجاحظ - كما ذكرنا - بسعة الإطلاع ومجبة الكتب وقراءتها واقتنائها حتى قيل « إنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان . » وقيل أيضاً إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر في الكتب . وقد توفي في أحضانها عندما سقطت عليه أثناء قراءته وهو شيخ مفلوج . وتحضرنا - في هذه المناسبة - عبارات لأبي العيناء « ليت شعري !! أي شيء : كان الجاحظ لا يحسن » جواباً لمن قال « ليت شعري !! أي شيء يحسن الجاحظ !! » ويبدو أن سعة اطلاع الجاحظ وتعدد جوانبها وعمقها هي التي هيأت له منزلة مرموقة لدى المفكرين انفراداً بها . قال أبو القاسم السيرافي : « حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل ابن العميد الوزير . فجرى ذكر الجاحظ فغض بعض الحاضرين من منزلته . وسكت الوزير . فلما خرج الرجل قلت له : سكت - أيها الأستاذ - عن الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله ! » فقال لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله . . . يا أبا القاسم فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً . » وقيل لابن هفان : لم لا تهجو الجاحظ ؟ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلي يحدّث عن عقله !!! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالعين شهرة . »

وعُرف الجاحظ أيضاً بالظُرف والدُّعابة وخفة الروح وبالتهكم أو السخرية

وقد مدح البحري الفتح بأكثر من ثلاثين قصيدة من غرر قصائده . وقد ورد في إحداها :

وما أَقْبَلْتُ عَنَّا جَوَانِبُ مُطْلَبٍ نَحَاوِلُهُ إِلَّا فَتَحْنَاهُ بِالْفَتْحِ
وجاء في أخرى :

وَلَمَّا حَضَرْنَا سُدَّةَ الْأَذْنِ أُخِّرْتُ	رَجُلًا عَنِ الْبَابِ الَّذِي أَنَا وَاحِلُهُ
فَأَفْضَيْتُ مِنْ قُرْبٍ إِلَى ذِي مَهَابَةٍ	أَقَابِلَ بَدْرَ الثَّمِّ حِينَ أَقَابِلُهُ
فَسَلَّمْتُ فَاعْتَاقَتْ حِجَانِي هَيْبَةٌ	تَنَاعَنِي الْقَوْلَ الَّذِي أَنَا قَائِلُهُ
فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلَاةَ وَانْتَشَى	إِلَيَّ يَبْشُرُ أَنْتَنِي مَخَايِلُهُ
ذَنُوتُ فَقَبِلْتُ التَّدَى مِنْ يَدِ امْرِئٍ	جَمِيلٍ مُحَيٍّ سَيَاطِ أُنَامِلُهُ
صَفَّتْ مِثْلَ مَا تَصْفُو الْمُدَامَ خِلَالَهُ	وَرَقَّتْ كَمَا رَقَّ النَّسِيمُ شَمَائِلُهُ
فَقُلْتُ إِلَى الْمُعْلِيِّ إِلَى الْمَجْدِ طَرَفَهُ	دَعِ الْمَجْدَ فَالْفَتْحُ بَنُ خَاقَانٍ شَاغِلُهُ

اللاذعة وبمزج الهزل بالجد إلى جانب اتصافه بالطبع بالصرامة والحزم الفكري والعنف . كما عرف بالانغماس في المفارقات والتناقضات وبالمبالغة والتهويل والقدرة العجيبة على تصغير الشيء العظيم حتى يراه المرء ضئيلاً تافهاً متخاذلاً وعلى تعظيم الشيء الصغير حتى يراه المرء عظيماً عملاقاً مع قدرة منطقية تبريره على الاحتجاج للشيء ولنقيضه . وقد ظهر ذلك بوضوح في كتاب البخلاء وفي رسالة التربيع والتدور كما سنرى . أما خفة روحه فتبدو في جميع مؤلفاته التي أطلعنا عليها وفي تصرفاته أيضاً . قال أبو العيناء « كان لي صديق . فجاءني يوماً فقال لي : أريد الخروج إلى فلان العامل وأحببت أن يكون معي إليه وسيلة . وقد سألت من صديقه فقيل لي أبو عثمان الجاحظ وهو صديقك وأحب أن تأخذ لي كتابه إليه بالعناية بي . » قال أبو العيناء « فصرت إلى الجاحظ فقلت له جئتكم مسلماً وقاضياً للحق ولي حاجة لبعض أصدقائي وهي كذا وكذا . فقال لا تشغلنا الساعة عن المحادثة . . . إذا كان في غد وجهت إليك بالكتاب إلى فلان ففيه حاجته . فلما كان في غد وجهت إلي بالكتاب . فقلت لابني وجه هذا الكتاب إلى فلان ففيه حاجته . فقال لي : إن أبا عثمان بعيد الغور ينبغي أن نقض الكتاب وننظر ما فيه . ففعل . فإذا في الكتاب : « هذا الكتاب مع من لا أعرفه . وقد كلمني فيه من أوجب حقه . فإن قضيت حاجته لم أحمك . وإن رددته لم أذممك » . فمضيت إلى الجاحظ من فوري . فقال : « يا أبا عبد الله قد علمت أنك أنكرت ما في الكتاب » . فقلت : أو ليس هو موضع نكر !!! قال لا . هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعنتني به . فقلت : لا آله إلا الله !! ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جئلت عليه . » وحادثة طريفة أخرى تدل على خفة روح الجاحظ مفادها : إن الجاحظ استأذن على أحد الأمراء ومعه الشكك وهو أحد المتكلمين . فقال الخادم لمولاه : الجاحد والشكك في الباب . فقال الأمير : « هذان من الزنادقة لا محالة » . فصاح الجاحظ ويحك !!! ارجع وقل لسيدك : الحدأقي في الباب - والحدأقي من ألقاب الجاحظ المعروفة . - فقال الخادم لسيده : « الحلقفي في الباب » . فصاح الجاحظ : ويلك !!! ارجع إلى الجاحد .

وعُرف الجاحظ أيضاً ببراعته في انتقاء الشعر وبتعاطيه فقد قال يوماً « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبة . فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه . فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل

بالأخبار وتعلّق بالأيام والأنساب . فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . « وقد أورد ياقوت في معجم الأدباء نماذج من شعر الجاحظ منها في مدح أحمد بن أبي دؤاد :

وعويص من الأمور بهيم غامض الشخص مظلم مستور
قد تسنمت ما توغر منه بلسان يزينه التحبير
مثل وشي البرود حلله النّسج وعند الحجاج درّ نشير
حسن الصمت والمقاطع إمّا نصت القوم والحديث يدور
ثم من بعد لحظة قدرت اليسر وعرض مهذب موفور
لا تراني وان تطاولت عمداً بين صفهم وأنت تسير
كلهم فاضل عليّ بمال ولساني يزينه التحبير
فاذا ضمنا الحديث وبيت وكأني على الجميع أمير
رُبّ خصم أرقّ من كل روح ولفرط الذكاء يكاد يطير
فاذا رام غايتي فهو كاب وعلى البعد كوكب مهوور

وقال في أبي الفرج نجاح بن سلمة يسأله اطلاق رزقه :

أقام بدار انخفّض راض بخفضه
جزعت فلم أعتب فلو كنت ذاحجاً
سواء على الأيام صاحب حنكة
يظن الرضى شيئاً يسيراً مهوئاً
خضعت لبعض القوم أرجو نواله
فلما رأيت المرء يبذل بشره
رَبَعْتُ على ظلعي وراجعت منزلي
وشاورت اخواني فقال حلیمهم
فتى لم يقف في الدهر موقف ظنة
أعذك بالرحمن من قول شامت
ولو كان فيه راغباً لرأيت
أخاف عليك العين من كل حاسد
فإن ترع ودّي بالقبول فأهله

وذو الحزم يسري حين لا أحد يسري
لقنعت نفسي بالقليل من الوفر
وأخر كاب لا يرش ولا يبري
ودون الرضى كأس أمر من الصبر
وقد كنت لا أعطي الدنية بالقسر
وبجعل حسن البشر وافية الوفر
فصيرت حليفاً للدراسة والفكر
عليك الفتى المرء ذا الخلق الغمر
فيحتاج فيه للتوصل والعذر
أبو الفرج المأمول بزهد في عمرو
كما كان دهرأ في الرخاء وفي اليسر
وذو السود فخور الفؤاد من الذعر
ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر

أَلَا يَا فَتَى الْكِتَابِ وَالْعَسْكَرِ الَّذِي
وَعَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يُرْشِدُ أَمْرَهُ
مُطْلًا عَلَى التَّحْدِيدِ مَا يَسْتَفْزُهُ
بِرَأْيِي يُزِيلُ الطَّوْءَ عَنْ مَسْتَقَرِّهِ
وَعِزْمٍ كَغَرْبِ الْمَشْرِقِيِّ مَصْمَمٍ
فِيَا ابْنَ نَجَاحٍ أَنْجَحِ اللَّهَ سَعِيَكُمْ
قَعْدَتُ فَلَمْ أَطْلُبْ وَجَلْتُ فَلَمْ أُصِيبْ
وَأِنْ أَخْفَقْتُ كَفَيْتُ وَقَدْ عُلِقْتُمْ
أَعْيُذُكَ بِالرَّحْمَنِ أَنْ تُشْمِتَ الْعَدَى

تَأَزَّرَ بِالْحُسْنَى وَأَيْدٍ بِالنَّصْرِ
وَيَحْفَظُهُ فِي الْقَاطِنِينَ وَفِي السَّفَرِ
مَكَائِدُ مُحْتَالٍ عَقَارِبُهُ تَسْرِي
وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْخَصْمِ فِي وَاضِحِ الْفَجْرِ
وَقَلْبُ رِبِيضِ الْجَاشِ مَثْلِيحِ الصَّدْرِ
وَأَيْدِيكُمْ بِالنَّصْرِ وَالْعُودِ الدَّثَرِ
خَلِيلًا يُوَاسِنُنِي وَرَغْبًا فِي شُكْرِي
فَقَدْ صَابَ رَأْيِي وَاسْتَنْمَتُ إِلَى شِعْرِي
فَلَفَقَرُ خَيْرٌ مِنْ شِمَاتَةِ ذِي الْعُمَرِ

وذكر أبو العيناء : قال حدثني ابراهيم بن رباح قال . أنشدني الجاحظ

يمدحني :

بَدَا حِينَ أَزْرَى بِإِخْوَانِهِ فَقَلَّلَ عَنْهُمْ شَبَابَ الْقَدَمِ
وَذَكَرَهُ الْحَزْمَ رَيْبَ الزَّمَانِ فَبَادَرَ بِالْعُرْفِ قَبْلَ النَّدَمِ

ثم استطرد ابراهيم فقال فذاكرتُ بهما أحمد بن أبي دؤاد فقال أنشدنيهما
الجاحظ في مدحي . ثم لقيتُ محمد بن الجهم فقال أنشدنيهما الجاحظ يمدحني بهما .

وما يروى - بمناسبة الحديث عن شعر الجاحظ - على ما ذكر ابن خلكان
[وفيات الأعيان ص ٤٧٣ - ٤٧٤] : « ان أحد أولاد البرامكة انحدر الى البصرة
من السند وعلم بمرض الجاحظ وأحب أن يراه قبل وفاته . قال البرمكي : فأفضيتُ
الى باب لطيف فقرعته فخرجت إليَّ جارية فقالت من أنت ؟ قلت رجل غريب
وأحب أن أسرَّ بالنظر إلى الشيخ . فبلغته ما قلت . فسمعتة يقول قولي له : وما
يصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل !!! . . . فقلتُ للجارية لا بد من
الوصول إليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلثي فقال
أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لي فدخلت وسلمت فردَّ رداً
جميلاً . وقال مَنْ تَكُونُ أَعَزُّكَ اللَّهُ ؟ فانتسبت له فقال رحم الله تعالى أسلافك وآباءك
السُّمَّاءِ الأجواء . فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ولقد انجبر بهم خلق كثير
فسُقياً لهم ورعياً . . . فدعوتُ له وقلت أسألك أن تُنشدني شيئاً من شعرك
فأنشدني :

لئن قُدِّمْتُ قبلي رجالُ فطالما مَشَيْتُ على رِسْلي فكنْتُ المُقَدِّما
ولكنَّ هذا الدهرُ تأبى صروفه فُتِّبَرم منقوضاً وثُنْقَضُ مُبرما

وما دمنا بصدد التحدث عن موقف الجاحظ من الشعر فانه من الطريف أن نشير هنا الى ما ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبيين [ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧] :
« ان اللَّحْنَ يجوز للجواري الظَّراف والكواعب النواهد . وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف . وقد قال مالك بن اسياء في استملاح اللحن :

وحديثُ أَلَدِه هو مَّما تشتبه النفوس يؤزَن وزنا
منطقُ صائبٍ وتَلَحَّن أحياناً فأوْخِرُ الكلام ما كان لَحْنا

كذا فهم الجاحظ في بيت مالك أنه أراد باللحن الخطأ في الكلام في حين ان :
لَحْن الرجل يَلَحَّن لَحْناً فهو لاحن إذا أخطأ . وَلَحِنَ بَلَحَنَ لَحْناً فهو لحن إذا أصاب وفطن . ومالك في قوله « وتلحن أحياناً » يعني أنها تُعَرِّضُ في حديثها فتزيله عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون . وقوله « وخير الكلام ما كان لَحْناً » أي خیر الحديث ما فهمه صاحبك الذي تحب إفهامه وحده وخفي على غيره : لَحْناً أي إصابةً وفطنةً قال تعالى « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » ولم يرد الخطأ في الكلام . والخطأ لا يُستحسن من أحد . وعندما عوتب الجاحظ في ذلك . وجَمَّ ساعة ثم قال : « لو سَقَطَ إليَّ هذا الخبر لما قلت ما تقدم . فقليل له فأصلحه . فقال الآن !!! وقد سار الكتاب في الآفاق !!! هذا لا يصلح . » ومن الطريف أن نشير [ونحن نختم هذا الجانب من جوانب البحث] الى أن بديع الزمان الهمداني وضع مقامة خاصة سماها المقامة الجاحظية بين فيها موقفه من شعر الجاحظ . قال البديع « حَدَّثَنَا عيسى بن هشام قال جمعني مع رَفِقةٍ وليمة . . . عكفنا على خِوانٍ قد ملئتُ حياضه ونورت رياضه واصطففت جفانه واختلفت ألوانه . . . ومعنا على الطعام رجل تُسافر يده على الخِوان وتُسفر بين الألوان وتأخذ وجوه الرُّعْفاً وتَفْقأ عين الجفاذ وترعى أرض الجيران . يَزْحُمُ اللَّفْمَةَ باللُقْمَةِ ويهزم المَضْعَةَ بالمَضْعَةِ . وهو مع ذلك ساكت لا يَنْبَس . . . ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على الجاحظ وخطابته . . ووافق أول الحديث آخر الخِوان . وزكنا عن ذلك المكان . فقال الرجل أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه !- فأخذنا في وصف الجاحظ . ولَسَنَهُ وحُسْنَ سُنَنِهِ في

الفصاحة وسُنَّتُهُ فمَّا عرفناه . فقال : يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ولكل دار زمان ولكل زمان جاحظ . . . إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يَقْطِفُ وفي الآخر يقف . والبليغ من لم يَقْصُرَ نظمه عن نثره . فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلتموا الى كلامه فهو بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات . . . فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصنوعة ؟ »

- ١٢ -

كنا لحد الآن نتحدث عن الجوانب السايكولوجية والاجتماعية لشخصية الجاحظ لا ارتباطها بأدبه الذي هو انعكاساً عنها بعد التحليل الدقيق ولم انمَسْ إلا عَرَضاً وضمنياً ونادراً الجوانب السايكولوجية في أدبه وهي جوهر بحثنا هذا . ونود الآن - قبل الدخول في صميم الموضوع - أن نشير [استكملاً للبحث ولإعطاء صورة متكاملة عن محتوى أدب الجاحظ] الى ملاحظات تربوية وعلمية صائبة أبدتها الجاحظ استطراداً في سياق تناوله موضوعات أخر :

أولاً : الملاحظات التربوية : ذكر الجاحظ بصدد العلاقة بين النظرية والتطبيق وأهمية الاستنباط أو الاستدلال والتمييز بين المهم وغير المهم - وهو مبدأ تربوي حديث من الناحية التاريخية - ما نصه [كتاب البيان والتبيين ج ٥ ص ١٢٥] « ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى . كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى . . . والإنسان الحسَّاس - إذا كانت الأمور مميَّزة عنده - أخذ ما يحتاج اليه وترك ما يستغني عنه . » وأشار الجاحظ الى المعنى نفسه بشيء من الإيضاح والتبسيط فقال [المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧] « ومن الناس من يقول أن العيش كله في كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر . وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير من أن يكون بالأمور عالماً أو يكون بها جاهلاً . . . فان كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له بالقول والعمل حسب علمه لأن المعرفة لا تكون كعدمها لأنها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها . وفي القول والعمل ما أوجب النباهة . وأدنى حالاته أن تخرجه من حد الخمول . ومتى أخرجته من حد الخمول فقد صار معرّضاً لمن يعدل سبيله . وكما ان المعرفة لا بد لها من عمل ولا بد للعمل من أن يكون قولاً وفعلاً . والقول لا يكون قولاً إلا وهنالك مقول له . وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرف به الفاعل . » وكتب الجاحظ بصدد موقف الأم

الجاهلة من الطفل العبارات الطريفة التالية : [المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٨٧] « إن الصبي يبكي بكاء شديداً متعباً موجعاً . فإذا كانت الأم جاهلة حركته في المهد حركة ثورته الدّوار . أو تنومه بأن تضرب يدها على جبينه . ومتى نام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ولم يُعلّل ببعض ما يُلهمه ويُضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولا يكون نومه على غم أو فزع أو غيظ فإن ذلك يعمل الفساد . » وقال الجاحظ أيضاً « والعقل - جعلتُ فداك - أطولُ رَقْدَةً من العين وأحوج الى الشّحذ من السيف وأفقر إلى التعهد وأسرع الى التغير . وادواؤه وأطبائه أقل . وعلاجه أَعْضَل . فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته . ومن راحه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته . ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفته وجوه المطالب . ثم في الخواطر الغث والسمين والفاسد والصحيح والمسرّع اليك والبطيء عنك والدقيق الذي لا يكاد يُفهم والجليل الذي لا يلغى الفهم . »

ثانياً: الملاحظات العلمية : ذكر الجاحظ أن الصمم الذي يعتري الطفل لا يحصل بالضرورة بفعل نقص في النطق « لشيء في لسانه . ولكنه أتى في ذلك لأنه حين لم يسمع صوتاً قط - مؤلفاً أو غير مؤلف - لم يعرف كيفيته فيقصد اليه . » [كتاب الحيوان ج ٤ ص ٤٠٤] . وقال الجاحظ يصدر تخلف سماع صوت الرعد عن رؤية البرق [المصدر نفسه ص ٤٠٨] « ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعده . والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل اليك في سرعة البرق . » وذكر الجاحظ في تعليل اختلاف لون بشرة الزنوج النص التالي المرتبط بآثر البيئة الطبيعية في ذلك : « إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً . . . ولكن البلد فعل ذلك . والحجة في ذلك أن في العرب سوداً كبنّي سُليم بن منصور وكل من نزل الحرّة من غير بني سُليم كلهم سود . . . ولقد بلغ من أمر تلك الحرّة ان طباعها وخيلها وهوامها ونعامها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود . » وذكر الجاحظ أيضاً أموراً آخر طريفة ساقته اليها ملاحظاته الدقيقة ولكنه أخطأ في تفسيرها لعوامل موضوعية لا سيطرة له عليها بالنسبة لظروفه العلمية آنذاك . منها مثلاً: [كتاب الحيوان ج ٤ ص ٧١٧] « لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم . فيعمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد ياجوج وماجوج . وترى القمّة في رأس الشباب الأسود الشعر سوداء . وتراها في

رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء . وتراها في رأس الأشمط شمطاء وهي في لون
الجميل الأورق ، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فإن نصل خضابه
صار فيها شكله من بين بيض وحمرة . « وكتب الجاحظ أيضاً [رسالة التربيعة والتدوير
ص ٨٦] « أنا - جعلتُ فداك - أعلم اني أسمع ولا أعقل كيفية السمع . وأعلم أنني
أبصر ولا أعقل كيفية البصر . ولا أدري أمعدن العقل الدماغ . . . أم معدن العقل
القلب دون الدماغ !! . . . ولعلهما موصولان غير مقطوعين . » وكتب الجاحظ
أيضاً « ولعمري ان العيون لتخطيء وأن الحواس لتكذب وما الحكم القاطع إلا
للذهن والاستبانة الصحيحة إلا للعقل . »

وأبدى الجاحظ ملاحظات في غاية الأهمية ترتبط بظاهرة النشوء والارتقاء
[كتاب الدلائل والإعتبار على الخلق والتدبير ص ٢٦ - ٢٧] « فالإنس - لما قُدِّرَ أن
يكونوا ذوي ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات في البناء والنجارة والحياكة
والجزارة وما أشبه ذلك - خُلِقَتْ لهم أكْفٌ كبار ذوات أصابع غلاظ تتمكن من القبض
على الأشياء ومزاولة هذه الصناعات . وآكلات اللحم - لما قُدِّرَ أن يكون معاشها من
الصيد - خُلِقَتْ لها أكْفٌ لطاف مدججة ذوات براثن ومخالب تصلح لأخذ الصيد ولا
تصلح للصناعات . وآكلات النبات - لما قُدِّرَ أن تكون لا ذات صنعة ولا ذات صيد
- خُلِقَتْ لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها
حوافر ململمة ذوات قعر كأخص القدم يطبق الى الأرض ويتهيأ للركوب والحمولة .
تأمل التدبير في خلقة آكلة اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات أسنان حراء وبراثن
شديد وأفواه واسعة فإنه لما قُدِّرَ أن يكون طعامها اللحم خُلِقَتْ خلقة تُشاكل ذلك
وأُعِينَتْ بسلاح وأدوات تصلح للصيد . فكذلك نجد سباع الطير ذوات مناقير
ومخالب مهيأة لفعالها . ولو كانت ذوات مخالب لكانت قد أعطيت ما لا تحتاج اليه
لأنها لا تصيد ولا تأكل اللحم . ولو كان السباع ذات أظلاف لكانت قد مُنعت ما
تحتاج اليه : أعني السلاح الذي به تصيد وتتعيش . ألا ترى كيف أعطي كل واحد
من الصنفين ما يشاكل صنعته وطبيعته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه !!! أنظر الى أولاد
ذوات الأربع كيف تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها لا تحتاج الى الحمل والتربية كما تحتاج
أولاد الإنس . فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من الترفق والعلم
والتربية والقوة . . . أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . » ثم يقول الجاحظ
[المصدر نفسه ص ٢٩ - ٣٠] « أنظر الى هذه البهائم كيف كُسيَتْ أجسامها هذه

الكسوة من الشعر والوبر لتقيها من البرد وكثير من الآفات . وألبست قوائمها الأظلاف والحوافر لتقيها من الحفا . فانها لما كانت بهائم ولا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للغزل والنسج كُفيت ذلك بأن جعلت كسوتها في خلقها باقية عليها ما بقيت ولا تحتاج إلى تجديدها ولا استبدالها . فأما الانسان فهو ذو حيلة وكف مهيأة للعمل فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال . »

تلك قضايا فكرية عامة قد تبدو لأول وهلة كأنها غير ذات ارتباط بالجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ وإن كان بعضها - بنظرنا - مرتبطاً ارتباطاً غير مباشر بموضوع البحث . ومع ذلك فان الغرض الأساسي من تطرقنا إليها ليس هو في الأصل تفسير جوانبها السايكولوجية بقدر ما هو - كما بينا - اعطاء صورة متكاملة للجاحظ الأديب والمفكر الفذ .

- ١٣ -

أما الجوانب السايكولوجية لأدب الجاحظ فتبدو بأوضح اشكالها - كما بينا - في كتاب البخلاء وفي رسالة التريب والتدوير ورسالة القيان وفي الأقسام المتبقية من كتاب اللصوص المفقود . والجوانب السايكولوجية المشار إليها تعبر عن نفسها في التحليل الشامل العميق للظواهر الاجتماعية التي يتناولها الجاحظ بالبحث وفي قدرته العجيبة على التغلغل في النفس البشرية . وقد اتضحت تلك الجوانب السايكولوجية بأحلى صورها في النواحي السبع التالية المترابطة والمتبادلة الأثر : أولاً : الناحية الديالكتيكية أو جدلية التفكير عنده . ثانياً : وناحية الإحاطة أو الامام الواسع العميق بالشيء من جوانبه المتعددة . وثالثاً : ناحية الاستطراد . ورابعاً : ناحية عنف المشاعر والتهكم اللاذع الذي يبلغ حد الافراط أحياناً . وخامساً : ناحية المبالغة والتهويل . وسادساً : ناحية مزج الهزل بالجد . وسابعاً : ناحية الظُرف والدُعابة . وبما أن بعض تلك النواحي يمزج ببعض آخر الى درجة الذوبان أو الانصهار فسوف نشير إليه إشارات ضمنية .

أولاً : الناحية الديالكتيكية في تفكير الجاحظ :

نقصد بالناحية الديالكتيكية في تفكير الجاحظ نظرته المستوعبة الى الشيء أو الشخص أو الظاهرة من زاويتين متافرتين وتجسيد مجمل النواحي السلبية والايجابية

ومحاولة التوفيق بينها باعتبارها أجزاء مترابطة في وحدة متماسكة : « وحدة النقيضين » بعبارة فلسفية . وقد وردت الناحية الديالكتيكية المشار إليها حتى في عناوين بعض مؤلفاته « الجدل والهزل » « العداوة والحسد » « التربيع والتدوير » « البيضان والسودان » . كما وردت تلك الناحية الديالكتيكية في تفسيره طبيعة الانسان والقيم الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية السائدة كما سنرى . وفي هذا التفكير الديالكتيكي يكمن جوهر نظرة الجاحظ السايكولوجية العميقة إلى كثير من قضايا الفرد والمجتمع [في مجتمعه وعصره] وفي هذا العصر الذي نعيش فيه . وبما أننا نتحدث في مهرجان مقام لتكريم الجاحظ فسوف نتحاشى ذكر كل ما من شأنه الإساءة إلى الجاحظ وهو كثير احتراماً لهذه المناسبة الكريمة . وسوف نترك الجاحظ نفسه يتكلم بصورة مباشرة إلى السامع بعباراته الرشيدة الواضحة التي لا تحتاج إلى تعليق أو تبسيط .

كتب الجاحظ بصدد تفسير طبيعة الانسان المتناقضة العبارات التالية [كتاب الحيوان ج ٦ ص ٢١٤] « ألا ترى ان فيه طبائع الغضب والرضا . دالة اليقين والشك . . . وفيه طبائع الفطنة والغبوة . والسلامة والمكر . والنصيحة والغش . والوفاء والغدر . والرياء والاخلاص . والحب والبغض . والجد والهزل . والبخل والجود . والاقتصاد والسرف . والتواضع والكبر . والأنس والوحشة . والتميز والخط . والجبن والشجاعة . والحزم والاضاعة . والتبذل والتعزز . والسخط والرضا . والصبر والجزع . والذكر والنسيان . . . والكتمان والإشاعة . والإقرار والأفكار . والعلم والجهل . والظلم والانصاف . . . والتغافل والتغاضي . وما لا يمكن عده !!! » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١٣] : « إنما سحر الانسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لما وجدوا فيه من جميع أشكال العالم الكبير . . . ووجدنا فيه الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس . . . ووجدوه يأكل اللحم والحب ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع . ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب وروغان الثعلب !! » وقال أيضاً [كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٨] « وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام . وتكون له طبيعة في النجارة وليست له طبيعة في الفلاحة . وتكون له طبيعته في الحداء أو التعبير أو في القراءة بالالحن وليست له طبيعة في الغناء . » وقال أيضاً [فلسفة الجد والهزل ص ١٢ - ١٤] « فمن الأمور التي توجب بعضها بعضاً : المنفعة توجب المحبة . والمضرة توجب البغضاء . . . والصدق يوجب الثقة والكذب

يورث التهمة . والأمانة توجب الطمأنينة . والعدل يوجب اجتماع القلوب . .
والجور يوجب الفرقة . وحسن الخلق يوجب المودة . وسوء الخلق يوجب المبادعة .
والانبساط يوجب المؤانسة . والانقباض يوجب الوحشة . والكبر يوجب المقت .
والتواضع يوجب المقة . ولكل شيء من هذه افراط وتقصير . وإنما تصبح نتائجها اذا
أنميت على حدودها . فالافراط في الجود يوجب التبذير . والافراط في التواضع يورث
المذلة . . . والافراط في الكبر يدعو الى مقت الخاصة . والافراط في المؤانسة يدعو الى
خلطاء السوء . والافراط في الانقباض يوحش النصيحة . . . واعلم ان الصمت في
موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة غرضه . . . واعلم
أن كثرة العتاب سبب للقطيعة . واطراحه كله دليل على قلة الاكتراث . . . واقتصد
في مزاحك فان الافراط فيه يذهب بالمهابة ويحريء عليك أهل الدناءة . وإن
التقصير فيه يقبض عنك المؤانسة . . . واجعل صمتك أكثر من كلامك فانه أدل على
حكمتك . واجعل عفوك أكثر من عقوبتك فان ذلك أدل على كرمك . ولا تُفْرِطَنَّ
فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه والتأديب في أدواته . . . واعلم ان نشر
محاسنك لا يليق بك ولا يقبل منك . . . فأما ثناء المادحين لك في وجهك فإنما ذلك
أسواق أقاموها للارباح وساهلوك في المبايعة . . . وعندما تأتي محفلاً فيه جمع من
الناس فاجلس دون الموضع الذي تستحقه حتى يكون أهله الذين يرفعونك فتظهر
جلالتك وعظم قدرك . وعندما يفيض القوم في حديث عندك فيه مثل ما عندهم أو
أفضل فيتنافسون في إظهار ما عندهم فإن ناقشتهم كنت واحداً منهم وإن أمسكت
افتضوك في ذلك فصرت كأنك ممتن عليهم بحديثك وانصتوا لك ما لم ينصتوا
لغيرك . »

والجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ - وفي سلوكه كما سنرى - يعبر عن
نفسه أثناء موازنته بين خطباء العرب وخطباء الأمم الأخرى فخطباء العرب مبتكرون
مجردون وخطباء غيرهم تابعون مفكرون :

[كتاب البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧] « جملة القول : إننا لا نعرف الخطب إلا
للعرب . . . إلا أن كل كلام لغيرهم إنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وطول
خلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم
الأول وزيادة الثالث في علم الثاني . حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم .
وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال كأنه الهام . وليست هناك معاناة ولا مكابرة

ولا اجالة فكر ولا استعانة . « كما عبر الجانب الديالكتيكي المشار اليه عن نفسه أيضاً في تفكير الجاحظ أثناء تحليله بعض الظواهر الاجتماعية السائدة آنذاك : فكتب الى بعض معارفه [العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧] يذم الزمان « كتبتُ اليك وحالي حال من كُشِفَتْ همومه وأشكلت عليه أموره . . . وقلّ عنده من يثق بوفائه . . . لاستحالة زماننا وفساد ايامنا ودولة أنذالنا . . . فوجدنا الجاه متصلاً بالحرمان . والصدق آفة على المال . . . إذ صارت الخطوة . . . في لؤم النية . وتناول الزرف من جهة محاشاة الوقار وملابسة معرة العار . . . ووجدنا من فيه السفولية الواضحة والمثالب الفاضحة . . والجهالة المفرطة . . وسرعة الغضب والحفة قد استكمل سروره واعتدلت أموره وفاز بالسهم الأغلب والحظ الأوفر والقدر الرفيع والجواب الطائع والأمر النافذ . إن زلّ قليل حكّم وإن أخطأ قليل أصاب . . ثم نظرنا الى الوفاء والأمانة والنبل والبراعة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة والفائق في سعة علمه والحاكم على نفسه والغالب لهواه فوجدنا فلان بن فلان . ثم وجدنا الزمان لم يُنصفه من حقه ولا قام له بوظائف فرضه . ووجدنا فضائله القائمة قاعدة به . ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقَ مع الحَمَقَى إذا ما لقيتهم	ولا فهم بالجهل فعَل أخِي الجهل
وخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً	يُخلط في قول صحيح وفي هزل
فأنى رأيت المرء يشقى بعقله	كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

- وقد ورد صدى ذلك عند المتنبي وفي مقامات البديع والحريري - .

ومن الطريف أيضاً أن يشار هنا إلى أن الجانب الديالكتيكي هذا قد ظهر أيضاً في موقف المفكرين من الجاحظ . فقد قال بعضهم فيه - كما ذكرنا - « كتبتُ الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وذهب آخرون إلى الجهة المعاكسة . كما رأينا في مقامة البديع الجاحظية وفي قول الباقلاني في [إعجاز القرآن ص ٣٧٧] : « وكذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمن الذي لا يؤخذ فيه والباب الذي لا يذهب عنه . وأنت تجد قوماً يرون كلامه من بيت سائر ومثل نادر وحكمة ممهدة منقولة وقصة عجيبة مأثورة . وأما كلامه - في أثناء ذلك - فسطور قليلة وألفاظ يسيرة . فإذا أُحوج الى تطويل الكلام خالياً من شيء يستعين به فيخلط بقوله قول

غيره . . . ومن ذكر من كلامه سطرًا أتبعه من كلام غيره أوراقاً . . . » واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ في جمعه بين الرقة والضرامة وبين الهزل والجد وبين تضخيم الشيء وتصغيره . وما يجري هذا المجرى .

والجاحظ يسترسل في منطق الديالكتيكي الذي يحمل نظرات سايكولوجية عميقة في تحليل طبيعة الانسان من الناحية الاجتماعية وفي تفسير جوهر العلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس . ونظراته المشار اليها مستمدة في الأصل من قراءاته الكثيرة ومن خبرته الخاصة في شؤون الناس ومن تحليله حالاته النفسية ذاتها فقد كتب الجاحظ مثلاً في معرض تحليل السياسات العامة للحكام في عصر . [كتاب الحيوان ج ٢ ص ٨٧] . وبعْدُ فإيُّ رئيس كان خيرهُ محضاً ؟ . . . ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ؟ وقَتْلُ في موضع القتل وأحيا في موضع الإحياء ؟ وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ومنع ساعة المنع وأعطى ساعة الإعطاء ؟ وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع . وبعض العفو إغراء . . . كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير بمن كان خيرهُ محضاً . . . وشرُّ منه من كان شرهُ صرفاً . ولكن اخلطِ الوعد بالوعيد . والبشرُ بالعُبوس . والإعطاء بالمنع . والحلم بالإيقاع . فان الناس لا يهابون ولا يُصلحون إلا على الثواب والعقاب والإطعام والمنع . . . ومن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك كان كمن أطمع ولم يُنجز وعُرف بذلك . . . ولولا الاستطراد لاقبستنا فقرات مماثلة من كتاب « الأمير » الذي وضعه مكيا فيلي [١٤٦٩ - ١٥٢٧] الذي جاء بعد الجاحظ بأكثر من ستة قرون . وكتب الجاحظ أيضاً في معنى مماثل [رسالة المعاش والمعاد والأخلاق المحدودة ، والمذمومة التي بعث بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد : رسائل الجاحظ / مطبعة الخانجي / ١٩٦٢ ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٥] :

« اعلم أن الله - جل ثناؤه - خلق خلقه ثم طبعهم على اجتذاب المنافع ودفع المضار وبُعْض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب وجبلة مفطورة لا خلاف بين الخلق فيه : موجود في الإنس والحيوان . . . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء . . . فالرغبة والرغبة أصلاً كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظُمت أو صغُرت . فاجعلها مثالك الذي تحتذي به وركنك الذي تستند اليه . . . واعرف لأهل البلاء - ممن جرّت بينك وبينه مودة أو حرمة ممن فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم . ثم لتكن أمورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق .

ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوىً فإن الأثرة على الهوى توجب السخط . . . أما من أثرت فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى فهو يتقرب أن ينتقل هواك الى غيره فتتحول إثرتك حيث مال هواك . فهو مدخول القلب في مودتك غير آمن لتغيرك . . . وأما من أثرت عليه بعد الاستحقاق منه فقد جعلت له السبيل الى الطعن عليك وأعطيتة الحجة على نفسك . . . فاجعل العدل والنصف في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين اخوانك . فمن قدمت منهم فقدّمته على الاستحقاق . وقال الجاحظ أيضاً في معرض الإطراء على الفتح بن خاقان والتنديد بخصوم الدولة وبالمعارضين لسياستها دون وجه حق بنظره : [رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ١٩٦٤ / الجزء الأول ص ٦-٧] « وقد أعجبني ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك والمحاماة لتدبير خليفتك وإشغافك من كل خلل وخيلة دخل على ملكه وإن ذق ونال من سلطانه وإن صغر ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه وجانب رضاه وإن قل ضرره ومن تخوفك أن يجد المتأول اليه طريقاً والعدو عليه متعلّقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناظم ومن محكوم عليه ساخط ومن معدول عن الحكم زار ومن متعطل متصفح ومن معجب برأيه ذي خطل في بيانه مولع بتهجين الصواب . . . حتى كأنه رائد لجميع الأمة ووكيل لسكان جميع المملكة . . . يضع نفسه في موضع الرقباء وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء . . . ومن محروم قد أضعفه الحرمان ومن لئيم قد أفسده الاحسان ومن مستبطن قد أخذ أضعاف حقه وهو - لجهله بقدره ولضيق ذرعه وقلة شكره - يظن أن الذي بقي له أكثر . . . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ونعمه السالفة عليه لكان لذلك أهلاً . . . وله مستحقاً . . . ومن صاحب فتنة خامل في الجماعة رئيس في العُرقة نفاق في الهرج قد أقصاه السلطان . . . فهو مغيب لا يجد غير التشنيع ولا يتشفي بغير الإرجاف . »

واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ في موقعه من الكتاب الذين ذمّ أخلاقهم بما لا يحتمل المزيّد واطرى عليهم بما لا يحتمل المزيّد أيضاً . فقد ورد في [كتاب ذم أخلاق الكتاب / رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ص ١٨٧ - ٢٠١] « حفظك الله وأبقاك وأمتع بك . قد قرأت كتابك ومِدَحَتَكَ أخلاق الكتاب وأفعالهم ووصفك فضائلهم وإيادهم وفهمته . . . فقد رأيْتُكَ أَطْنَبْتَ بِأَجَادِ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ وَحَكَمْتَ بِفَضِيلَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِنَ الْخَلْقِ . . . وَلَسْتُ أَدْعُ تَوْفِيقَكَ عَلَى مَوْضِعِ زَلَلِكَ فِي الْإِحْتِجَاجِ . . . وَأُبَيِّنُ - مَعَ ذَلِكَ - رَدَاءَةَ مَذَاهِبِ الْكُتَّابِ وَأَفْعَالَهُمْ وَلَوْمْ

طبايعهم وأخلاقهم بما تعلم انت والناظر في كتابي هذا إنني لم أقل إلا بعد الحجة . . . ثم أقول ما ظنك يقوم منهم أول مرتد كان في الاسلام كتب لرسول الله فخالف في كتابه إملاء ما أنزل الله فيه آيات من القرآن . . . وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح . . . ثم استكتب رسول الله بعده معاوية بن أبي سفيان . فكان أول من غدر في الاسلام بأمامه وحاول نقض عرى الايمان بأثامه . . . ثم كتب لعثمان بن عفان مروان بن الحكم فخانه في خاتمه وأشعل الرعية حرباً عليه في ملكه . . . ولو كانت الكتابة شريفة كان أحق الخلق بها رسول الله وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو الفضل والشرف فيهم . . . ومع ذلك فان قبح الكتابة بني على أن لا يتقلدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم . . . ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف والسنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف . . . يتوهم الواحد منهم أنه إذا عرّض جُبته وطول ذيله وعَقَصَ على خده صدّغَه وتحدف الشاربين على وجهه أنه المتبوع ليس التابع والمليك الذي فوق الملك . . . ثم انكم - معاشر الكتاب - في غاية التقاطع عند الاحتياج وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال . وأنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوق فيتلف ما في يديه فيخلي له القصابون سوقهم يوماً ويجعلون له في أرباحهم فيكون بربحها منفرداً أو بالبيع مفرداً فيسُدُّون بذلك خِلته ويجيرون منه كسره . . . ثم أنكم أولاد علأت وضرائر أمهات في عداوة بعضكم بعضاً . . . وحقن بعضكم على بعض . أفلكم ولأخلاقكم . . . ان للكتاب طبائع لثيمة . . . ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنظرائهم برّة ومن درائهم لهم حفظة . « يقابل هذا الموقف الصارم موقف رقيق معاكس - ولا نقول غير ذلك لأننا في مناسبة تكريم ذكرى الجاحظ - .

والموقف الرقيق هذا واضح في رسالة رقيقة بعث بها الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات [رسالة الجذ والهزل المصدر السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧] « جُعِلَتْ فداك لا تتعرّض لعداوة عقلاء الرواة ولضعينة حُفاظ المثالب وللسان من عَرِف بالصدق والتوخي وبقلة الخطل والتنكب ما وجدت من ذلك مندوحة . . . ولا تُعاقِب واداً وان اضطرك المراء . ولا تجعل طول الصُحبة سبباً للتضجر واصبر على خلقه فإن خلقه خير من جديد غيره . . . وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره وأنت فيه قسيمه !!! . . . ولو أن شيتي التي بها استعطفك وكبرة سني التي بها استرحمك -

اللتين لم يحدثا عليّ إلا وأنا في ذرّك ولم يجلاً بي إلا وأنا في ظلّك لكان في شفاعة الكيرة واسترحام الضّعف والوهنة ما ردعك عني أشدّ الرّدع ويؤثّر في طباعك أبين الأثر . فكيف وقد أمتدحتني جديداً ثم تريد أن تُهينني خلقاً !! وقوّيت عظمي أغلظ ما كان ثم تريد أن توهنه أرقّ ما كان !!! وهل هُرمّت إلا في طاعتك !!! وهل أخلّقتني إلا معاناة خدمتك !!! . وعبارات أخر مماثلة وردت في رسالة بعث بها الجاحظ الى احمد بن أبي دؤاد [آثار الجاحظ / عمر أبو النصر ص ١٧٣ - ١٧٤] « ليس عندي - أعزّك الله - سبب ولا أقدر غير شفيع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأصيل الذي لا يكون إلا من نتاج حُسن الظنّ وإثبات الفضل بحال المأمول . . وما مثلكم إلا كمثّل عيسى بن مريم حين كان لا يمرّ بملاء من بني اسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً . فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كالיום !!! كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً !!! فقال عيسى : كل امريء يُتفق ما عنده . وليس في أوعيتكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة . وكل اناء بالذي فيه ينضح . »

وبصدد الرابطة الديالكتيكية بين الصمت والكلام - وهما ظاهرتان متنافرتان كما هو معلوم - كتب الجاحظ [كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣] « قيل : لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب » . وإنما حثوا على الصمت لأن العامة الى معرفة خطأ القول أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت . ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى العاقل في قوله . وإلا فإنّ السكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل . ولعمري ان الناس الى الكلام لأسرع لأن أصل التركيب أن الحاجة الى القول والعمل أكثر من الحاجة الى ترك العمل والسكوت عن جميع القول . وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله . ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله . . . بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت . . . وكيف يكون الصمت أنفع ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه !!! ونفع الكلام يعمّ ويخصّ . والرواة لم تروِ سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين . وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت . ومواضع الصمت المحمودة قليلة . ومواضع الكلام المحمودة كثيرة . وطول الصمت يُفسد اللسان . . . وإذا ترك الانسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه وفسد حسّه . . . وأية جراحة منعتهما الحركة ولم تمرّنها على الاعتماد أصابها التعقيد على حسب ذلك المنع . » وبصدد العلاقة الديالكتيكية بين المنطقين المتنافرين من الكلام كتب الجاحظ (المصدر السابق ج ١ ص ٩٩) « الهذر والإسهاب - أي

كثرة الكلام على غير طائل - هو نقيض العبي والتقصير عن البيان . ومثلما ان العبي مذموم لأنه يُقصر عن بلوغ الغاية كذلك فإن الخطل مذموم لأنه يتعدى الحاجة ويفيض عن الغاية . . . وللكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية . . . وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا الى الاستئصال والملا فذلك هو الهذر وهو الخطل وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء يعيونه . « وقال الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ص ٢٠٢] « وإنما وقع النهي على كل شيء جاوز المقدار . ووقع اسم العبي على كل شيء قصر عن المقدار . فالعبي مذموم والخطل مذموم . »

تتضح اذن النظرة الديالكتيكية الأصلية في تفكير الجاحظ : النظرة التحليلية للأمر والكشف عن جوهرها والبعد عن التعميمات الجارفة والنظر الى الشيء في ضوء قريته أو سياقه وفي حدود المناسبة الزمانية والمكانية . وتلك صفة تتحدى الزمان والمكان ويحتاج اليها كل انسان في عهد الجاحظ وفي زماننا هذا بصورة خاصة حيث كثر التلفيق وانتشر التفضيل والدس والافتراء . وقديماً قال الشريف الرضي « وما آفة الاخبار إلا رواتها . »

والجانب الديالكتيكي يتضح عند الجاحظ في موقفه من المعلمين [كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥٢] : « والمعلمون عندي على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة . ومنهم رجال ارتفعوا من تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف نستطيع أن نزع ان علي بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قُطْرَب وأشباه هؤلاء يقال لهم حقى !!! . . . ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم . . . فإن ذهبوا إلى معلمي القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة . فما هم في ذلك إلا كغيرهم . وكيف نقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميث بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد وعطاء بن أبي رباح !!! ومثل عبد الكريم بن أمية وحسين المعلم وأبي سعيد المعلم !!! ومن المعلمين الضحّاك بن ابراهيم . وأما محمد الجهنّي وعامر الشعبي فكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان . . . ومنهم أبو سعيد المؤدّب وعبد الصمد بن عبد الأعلى وكان معهم ولد عتبة بن أبي سفيان . ومنهم محمد بن السكن وأبو بكر عبد الله بن كيسان . . . وما كان عندنا بالبصرة رجلاً أن أروى لصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين . »

ويستمر الجاحظ في سرد نماذج من تفكيره الديقالكتيكي الذي تستند إليه تحليلاته السايكولوجية العميقة في معرض الشك واليقين [كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ - ٣٧]

« وَبَعْدَ هَذَا فاعرف مواضع الشك وحالاته الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين . . . ثم اعلم أن الشك في طبقات عند المتكلمين . . . وكما قال أبو الجهم للمكي « أنا لا أشك » قال المكي « وأنا أكاد لا أوقن . » وقال أبو اسحق « الشاك اقرب اليك من الجاحد . . . » وإذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم وفي أي طبقة هو . . . فكن عالماً في صورة متعلم . ثم اسأله سؤال من يطمع بلوغ حاجته منه . . . والعوام أقل شكوكاً من الخواص لأنهم لا يقعون بين التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم . فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد . واتضح الجانب الديقالكتيكي في تفكير الجاحظ كما اتضح عمقه السايكولوجي في التحليل عند مقابله الجد بالهزل : [الترييع والتدوير ص ٦٥ - ٦٨]

« وقد ذهب الناس في المزاح الى معان متضادة وسلكوا منه في طرق مختلفة . فزعم بعضهم ان جميع المزاح خير من جميع الجد . وزعم آخرون أن الخير والشرف عليهما يستويان . . . ونحن نعوذ بالله ان نجعل المزح في الجملة كالجدة في الجملة . بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد . وعامة الجد خير من عامة المزح . . . وإن الناس وان تسموا بعابس وعباس وكالح ومرة وصخر وحنظلة . . . فقد تسموا بالضحك والبسام . »

وبصد قضية اللفظ والمعنى من الناحية الديقالكتيكية قال الجاحظ [كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٦] « ومن أراد معنى كريماً فلينتقن له لفظاً كريماً فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . . . فكن في ثلاث منازل : فان أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً . . . أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت وأما عند العامة إن كنت للعامة قصدت . والمعنى ليس يُشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة . » وقال أيضاً [المصدر السابق ص ١٣٨ - ١٩٣] « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من

ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . « وقال أيضاً [المصدر نفسه ص ١٤٤] « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً كذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أو إعرابياً فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس . كما يفهم السوقي رطانة السوقي . وكلام الناس في طبقات . كما أن الناس أنفسهم في طبقات . « ويختتم الجاحظ ملاحظاته بالعبارة الطريفة التالية « وأنا أقول انه ليس في الأرض كلام هو امتع ولا أبق ولا ألد في الاسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للسان من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الاصحاء والبلغاء » .

وكتب الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج ١ ص ١١٣] « حدثني صديق لي قال قلت للعتابي ما البلاغة ؟ قال كل من افهمك حاجته للإعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ » . وقد علق الجاحظ على قول العتابي [المصدر نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤] « قال أبو عثمان : والعتابي حين زعم ان كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المؤلدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدل عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه . ونحن قد فهمنا كلام النبطي الذي قيل له « لم اشتريت هذه الأتان ؟ » قال « اركبها وتلد لي » - بفتح المكسور والمضموم في الكلام . وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً . . . فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل فقد جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإيانة والملحون والمعرّب كلّها سواء وكلّه بياناً . . . وقد روى أصحابنا أن رجلاً من البلديين قال لإعرابي « كيف أهلك » قالها بكسر اللام . قال الاعرابي صلباً - لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله . . . وحكى الكسائي أنه قال لغلام بالبادية « من خلقتك ؟ » - وجزم القاف . فلم يدر الغلام ما قال ولم يجبه . فرد عليه السؤال . فقال الغلام لعلك تريد من خلقتك . وفتح القاف . « ويستمر الجاحظ في حديثه عن الرابطة الديالكتيكية بين اللفظ والمعنى فيقول [البيان والتبيين ج ١ ص ٨٣] « وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره . ومعناه في ظاهر لفظه . . . فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن

الاختلال مصوناً عن التكلف صنعَ في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة . ثم يقول [المصدر نفسه ص ١٤٢] « فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والخشن والقيح والسُميج والخفيف والثقيل . وكله عربي . وبكل قد تكلموا وبكل قد تمارحوا وتعايوا » . ثم يجسّد الناحية الديالكتيكية فيقول [المصدر نفسه ص ١٤٥] « وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل والفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني » .

والجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ يتضح في موقفه من البخلاء . فقد ورد مثلاً في كتاب البخلاء ص ١ - ٥ النص التالي : « ذَكَرْتُ .. حَفِظَكَ اللهُ - أَنْكَ قرأت كتابي في تصنيف حَيْلَ لصوص النهار وفي تفصيل حَيْلِ سَرَّاقِ الليل ... وذكرتُ أَنْ قُدِّرَ نفعه عظيم وأنَّ التقدّم في درسه واجب . وقلتُ : اذكر لي نواذر البخلاء واحتجاج الأشعَاء وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد لأجعل الهزل مُسْتَرَحاً والراحة حِجَافاً ... وقلتُ : وليس عَجَبِي مَنْ خَلَعَ عِذَارَهُ في البخل وابدَى صفحته للدم ... كعَجَبِي مَنْ قَدْ فَطِنَ لبخله وعرف افراط شِخِّهِ وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه . ولربما فَطِنَ أَنَّهُ قَدْ فَطِنَ إِلَيْهِ وَعَرَفَ ما عنده فمَوَّهُ شَيْئاً لَا يَقْبَلُ التَمَوِيهِ وَرَقْعَ خِرْقاً لَا يَقْبَلُ الرَقْع . فلو أَنَّهُ فَطِنَ لَعِيهِ وفطن لمن فطن لَعِيهِ فطن لضعفه عن علاج نفسه ... لترك تكلف ما لا يستطيعه ولا استراح من كد الكُفَّة ودخل في غمار الأُمَّة ... وَبَعْدُ فما باله يَفْطِنُ لعيوب الناس إذا أطمعوه ولا يَفْطِنُ لعب نفسه إذا أطمعهم وإن كان عِيَهُ مكشوفاً وعيب من أطمعه مستوراً !!! » واستطرد الجاحظ قائلاً [المصدر نفسه ص ١ - ٥] « وذكرتُ مُلَحَّ الحزامي واحتجاج الكندي ورسالة سهل بن هرون وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثي وكل ما حضرني من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم . وَلِمَ سَمَّوا البخل إصلاحاً والشَّحَّ اقتصاداً .. وَلِمَ جعلوا الجود سرفاً والإثرة جهلاً . وَلِمَ زَهَّدوا في الحمد وقَلَّ احتفالهم بالدم ... وَلِمَ تتابعوا في البخل . وَلِمَ اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنْفَتَهُمْ من ذلك الاسم . وَلِمَ رَغِبُوا في الكسب مع زَهْدِهِمْ في الإنفاق . وَلِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى . وَلِمَ احتجُّوا مع شدة عقوبتهم لما أجمعت الأمة على تقبيحه . وَلِمَ فحروا - مع اتساع معرفتهم - بما أطبقوا على تهجينه . وكيف يَفْطِنُ أحدهم عند الاعتلال للبخل ... ولا يَفْطِنُ لظواهر قبحه وشناعة اسمه . »

واتضح الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ أيضاً في ملاحظاته التي أبدىها

أثناء التحدث عن عبدالله بن كاسب الذي رماه الجاحظ بالبخل [البخلاء ص ٥٢ - ٦٤] « قلت له مرةً قد رَضِيتَ أن يقال عبدالله بخيل؟ . . . قال لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال . . قلت : ولا يقال أيضاً : فلان سخي إلا وهو ذو مال فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال . واسم البخيل يجمع المال والذم فقد اخترت أحسَّهما وأوضعهما . قال وبينهما فرق . قلتُ فهاتيه . قال : في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه . وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه . واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم . واسم السخي اسم فيه تضييع ومدح . والمال زاهد نافع مُكْرِمٌ لأهله ومُعِزٌّ . والحمد ربح وسُخْرِيَّةٌ واستماعك له ضعف وفُسْدُكُة . » وقال الجاحظ أيضاً وهو يداعب احمد بن عبد الوهاب [التبريع والتدوير ص ٥٣ و ١٨] « وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك . . . فجوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففبك طول البقاء ومعك دليل الفناء . وإن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك . وإن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك . وإذ قد سلّموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالرغم شطراً فقد حصّلت ما سلّموا لك وأنت على دعواك فيما لم يسلموا » .

وجرياً مع منطقهِ الديالكتيكي وازن الجاحظ بين السخاء الذي عُرِفَ به العرب وبين البخل الذي تحدّث عنه لدى أهل خراسان وبخاصة أهل مرو . فكتب في معرض التحدّث عن الكرم عند العرب وموقفهم من الضيف واستقبالهم إياه بالبشاشة واللطف [البيان والتبيين ج ١ ص ١٠ - ١١] « ولأن العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقّي بالبشر من حقوق القرى ومن تمام الإكرام وقالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المواكلة . . . وقال الشاعر :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحلي
ويُخَصِّبُ عندي والمَحِلُّ جُديبُ
وما الخَصْبُ للأضياف أن تُكثِرَ القرى
ولكنّما وجّه الكريم خصيب

ويستشهد الجاحظ بأبيات مترفة من قصيدة أنيقة للحسين بن مُطَيْرٍ في رثاء معن

بن زائدة الشيباني :

أَلَمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ
سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مُرْبَعًا ثُمَّ مُرْبَعًا
فِيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُقْرَةٍ
مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحِ وَمَوْضِعَا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبُرُّ وَالْبَحْرُ مُتَرَعَا
بَلَى قَدْ وَسِعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتَ

وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تَصْدَعَا
فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْفَعَا
تَمْنَى أَنْاسُ شَأْوِهِ مِنْ ضَالَالِهِمْ
فَأَضْحَوْا عَلَى الْأَذْقَانِ صَرَغَى وَظَلُّعَا

ومن جيد الشعر في مدح معن هذا قول الشاعر:

وَمِنْ جُودِهِ يَرْمِي الْكَرَاةَ يَأْسَهُمْ
مِنْ الذَّهَبِ الْأَرِيزِ صَيَّغَتْ نَصُولُهَا
لِيُنْفِقَهَا الْمَجْرُوحُ عِنْدَ انْقِطَاعِهِ
وَيَشْتَرِي الْأَكْفَانَ مِنْهَا قَتِيلُهَا

وتظهر السباحة عند العرب في ظاهرة « الاستباح » الطريقة المشهورة : وهي
إذ المدلجين في الليل البهيم يضطرون أحيانا أن يستباحوا كلاب الحي عن طريق
تقليدهم نباحها ليلافتوا نظر أهل الحي نحوهم لغرض الإيواء .

وفي الشعر العربي أبيات ممتعة تصف هذه الظاهرة منها :

وَمُسْتَبَحٍ بَاتَ الصَّدَى يَسْتَجِيهِ
إِلَى كُلِّ صَوْتٍ فَهُوَ فِي الرَّحْلِ جَانِحٌ
فَقُلْتُ لِأَهْلِي : مَا بُغَامٌ مَطِيَّةٍ
وَسَارَ أَضَافَتُهُ الْكِلَابِ النَّوَابِحِ

فقالوا غريب طارق طوّحت به
متون الفيافي والخطوب الطوارح
فقلت ولم أجثم مكاني ولم يقم
مع النفس غلّأت النفوس الفواضح
وقال آخر:

ومستبح تهوي مساقط رأسه
إلى كل شخص فهو للسمع أضور
حبيب إلى قلب الكريم مناخه
بغض إلى الكوماء والكلب أغدر
حضأت له ناري فأبصر ضوءها
وما كان لولا حضأة النار يُبصر
فجاء ومحمود القرى يستفزه
إليها وداعي الليل بالصبح مفرد
وقال غيره:

ومستبح في ليل دعوته
بمشبوبة في رأس حمير مقابل
فقلت له أقبل فأنتك راشد
وإن على النار الندى وابن ثامل
ومدح الشعراء الرجل الجواد مدحاً ضمنياً وطريقاً عن طريق مدح كلبه . فقال
أحدهم :

إلى ماجد لا ينبح الكلب ضيفه
ولا يتأذاه ابتغاء المغارم
وقال آخر :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً
يكلمه من حبه وهو أعجم

وتحضرنا - في هذه المناسبة - قصة طريفة رواها المبرّد - في معرض الحديث عن الجود عند العرب - [الكامل : ص ٤٥ - ٤٦] مفادها أن يزيد بن المهلب مرّ بأعرابية وهو في طريقه إلى البصرة بعد خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز . فنحرت الأعرابية له عنزاً فقال لولده - الذي كان يرافقه « ما معك من النّفقة ؟ قال ثلثائة دينار . قال فادفعها لها . قال ابنه : انك تريد الرجاء ولا يكون الرجال إلاّ بالمال . وهذه يرضيها اليسير . وهي بعد لا تعرفك . فقال : إن كانت ترضى باليسير فأنا لا أَرْضى إلاّ بالكثير . وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي . ادفَعها إليها . » فدفَعها .

ثم يقابل الجاحظ السخاء العربي بالبخل المتمثّل بأهل خراسان وبخاصة أهل مرو . ويسوق للتدليل على ذلك أمثلة طريفة صاغها بأسلوبه الساخر يصف بها بخلاءه [الذين هم من أطياب الناس لا تشمئزّ منهم الأنفُس ولا يسأم القراء من سماع أخبارهم الطريفة . وقد بثّ فيهم من خِفة روحه الشيء الكثير وجنبهم الاعتداء على أموال غيرهم بالرغم من شدة حرصهم] . كتب الجاحظ [البخلاء ص ٢٨] « نبدأ بأهل خراسان لأكثر الناس في أهل خراسان . ونخص بذلك أهل مرو . . . قال ثُمّامة : لم أرَ الديك في بلدة قط إلاّ وهو لا قط يأخذ الحَبّة بمنقاره ثم يلفظها قدّام الدجاجة إلاّ ديكاً مرو فإني رأيتها تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحَبّ . فعلمتُ أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء . فمن ثَمّة عمّ جميع حيواناتهم . » قال الجاحظ فحدّثتُ بهذا الحديث أحمد بن رشيد فقال : « كنتُ عند شيخ من أهل مرو . وصبي له صغير يلعب بين يديه . فقلتُ للصبي - إمّا عابثاً أو ممتحناً - أطعمني من خبزكم . قال : لا تريده هو مرّ . فقلتُ أسقني من مائكم . قال لا تريده هو مالح . قلتُ هات لي من كذا وكذا . قال لا تريده هو كذا وكذا . إلى أن عددتُ أصنافاً كثيرة . كل ذلك يَمْنَعْنِيهِ وَيُغَضُّهُ إِلَيَّ . فضحك أبوه وقال : ما ذنبنا !! إن هذا من علمه كما تسمع - يعني أن البخل طبع فيهم . » ويستطرد الجاحظ فيقول : « وزعم أصحابنا أن خُراسانية توافقوا في منزل وصبروا عن الإرتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر . ثم أنهم تعاهدوا وتجاروا . وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في العزم معهم . فكانوا إذا جاء المصباح شدّوا عينه بمنديل . ولا كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح . فإذا أطفؤهُ أطلقوا عينيه . »

ثم ينتقل الجاحظ فيعرض نماذج طريفة من بخلائه الظرفاء الآخرين من

غير أهل خراسان أطرفها بنظرنا النماذج التالية التي تنطوي على تحليل دقيق للجوانب
السايكولوجية للبخلاء . فأورد عن الحزامي - أبي محمد عبدالله بن كاسب الذي
مرّت الإشارة إليه - العبارات الطريفة التالية : [البخلاء ص ٤٨ - ٤٩] : قال
الجاحظ « كنا عند داود بن أبي داود بواسط . فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق ديس .
فقسّمها بيننا . فكلّ منا أخذ منها . . . ولكن الحزامي أعطى غيره . فأنكرت ذلك
من مذهبه ولم أعرف جهة تدبيره . فقلت للمكي قد علمت أن الحزامي يجزع من
الاعطاء وهو عدوه فأماً الأخذ فهو ضالته وأمنيته وأنه لو أُعطي أفاعي سجستان
وثعابين مصر وحيات الأحواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها . فعساه أراد
التفضيل في القسمة ؟ قال أنا كاتبه وصداقتي أقدم . وما ذلك من مذهبه . . . فلم
نلبث أن دخل علينا فسألته عن ذلك ففكر قليلاً ثم باح بسرّه وقال : . . . صنيعة
أضعاف ربحه . وأخذُه عندي من أسباب الأدبار . قلت فهاتِ إذن ما عندك . قال
أول ذلك كراء الحمال . ثم هو عليّ خطر حتى يصير الى المنزل . فإذا صار الى المنزل
صار سبباً لطلب العبيدة والأرز فذهب في العصائد وجلب ذلك شراء السمن ثم
جلب السمن غيره . . وصار هذا أضّر علينا من العيال . . . وإن أنا جعلته نبيذاً
احتجّت الى كراء القدور والى شراء الحبّ والى شراء الماء والى كراء من قد يوقد تحته
وإلى التفرغ له . فإن وكلت ذلك لجارية اسودّ ثوبها وغرّمتنا نحن الإثنان
والصابون . فان فسد النبيذ ذهبت الثقة باطلاً . . . وإن سلّم - وأعوذ بالله - وجاء
صافياً لم نجد بدءاً من شربه . . . على أني . ان جلست في البيت لم يكن لي بدء من
واحد وذلك الواحد لا بد له من درهم لحم وطسوج نقل وقراط ريحان ومن إيزار
للقدر ومن حطب للوقود . وهذا كله غرم . وهو بعد هذا شؤم وحرقة وخروج عن
العادة الحسنة . » وقال الجاحظ أيضاً [البخلاء ص ١٠٦ - ١٠٧] « زعموا أن رجلاً
قد بلغ في البخل غايته وصار إماماً وأنه كان إذا صار في يده الدرهم خاطبه وناجاه
وفداه واستبطنه . وكان يقول له : كم من أرض قطعت . . . ومن كيس
فارقت . . . وكم من خامل رفعت ومن رفيع قد أخملت . لك عندي أن لا
تعري . » ثم يلقبه في كيسه ويقول له « اسكن علي اسم الله في مكان لا تُهان ولا تُدَلَّ
ولا تُزعج منه . وأنه لم يدخل في كيسه درهم قطّ فأخرجه . فكان أهله منه في بلاء
وكانوا يتمنون موته والخلاص منه . . . فلما مات - وظنوا أنهم استراحوا منه - قدم
ابنه فاستولى على ماله وداره ثم قال ما كان إدام أبي ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون من
الإدام . قالوا كان يتأدّم بجبنة عنده . قال أرؤنيها . فإذا فيها حُرٌّ كالجدول من أثر

مسح اللقمة . قال ما هذه الحفرة ؟ قالوا كان لا يقطع الجبن وإنما يمسح على ظهره فيحفر كما ترى . قال بهذا أهلكني وبهذا أقعدني هذا المقعد . لو علمت ذلك ما صليت عليه . قالوا فأنت كيف تصنع ؟ قال أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة . »

وفي ختام هذا الجانب من جوانب البحث نود أن نشير إلى أن الناحية الديالكتيكية متأصلة في كيان الجاحظ من الناحية السايكولوجية . فقد ذكر بموتُ بن الزُرْع عن خاله الجاحظ قوله « يُحِبُّ للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير شجاعاً لا يبلغ الهوج محترساً لا يبلغ الجبن ماضياً لا يبلغ القحة صموتاً لا يبلغ العبي حليماً لا يبلغ الذل منتصراً لا يبلغ الظلم وقوراً لا يبلغ البلادة نافذاً لا يبلغ الطيش . » ويلوح ان الناحية الديالكتيكية طغت على حياة الجاحظ الفكرية أثناء حياته ولازمته حتى الموت ذكر القالي [الأمالي ص ٤٩ - ٥٠] عن مُعَاذ الخولي المتطيب أنه قال « دخلنا يوماً بسرٌّ مَنْ رأى على عمرو بن بحر الجاحظ لقدرة وقد أفلج . فلما أخذنا مجالسنا وأتاه رسول المتوكل . . . قال : ما يضع أمير المؤمنين بشق مائل ولعب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شِقَان : أحدهما لو غُرَزَ بالمِسال ما أَحَسَّ . والآخر يمرُّ به الذُّباب فيغوث . وأكثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتاً من قصيدة عون بن محمَّد الخزاعي . قال أبو مُعَاذ : وكان سبب هذه القصيدة ان عوناً دخل على عبد الله بن طاهر فسلم وردَّ عليه . فلم يسمع فأعلم بذلك . فأنشده :

يا ابنَ الذي دان له المشرقان
طُراً وقد دان له المغربان
ان الثمانين - وبُلغَتْهَا -
قد أحوجت سمعي الى ترجمان
ولم تَدَعْ فيَّ لِسْتَمْتَعٍ
إلا لساني وبحسبي لساني .

وتبدو الناحية الديالكتيكية عند الجاحظ في التباين بين فجره ومنظره : فجر يتسم بالفكر الثاقب ومنظر يتسم بالبشاعة . كما يتضح الجانب الديالكتيكي أيضاً في حياة الجاحظ المعاشية : فقره المدقع أيام طفولته وفي ثرائه وهو كهل وشيخ .

ثانياً : الإحاطة : أمّا الصفة البارزة الثانية لتفكير الجاحظ وتحليلاته السايكولوجية فهي قدرته على الإحاطة أو الامام بالموضوع الذي يعالجه بشمول وعمق وبراعته الفائقة في الأفاضة فيه من جميع جوانبه واستيفائه إياه حقه في التفصيل - مع خلطه الجدل بالهزل بأسلوب ساخر ممتع - . وناحية الإحاطة هذه مرتبطة أوثق الارتباط بالناحية الديالكتيكية التي تحدثنا عنها وبالنواحي الأخر التي سيأتي ذكرها .

كتب الجاحظ بصدد الاحتجاج لقصر القامة وذم طولها [التربيع والتدوير ص ٢٢ - ٢٣] وزعمت أن الانسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الانهدام الى بدنه والانحناء الى ظهره وأن القصير لا يتقوس ظهره ولا يميل عنقه ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه . ويسعه كل باب ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش ولا يفضل من الفراش . وهو بعد أخف على القلوب وأخلط بالنفوس وأبعد من السجاة وأدخل في كل باب ملاحاة . « وكتب أيضاً بصدد الاحتجاج للعرض - الذي يتضمن بالطبع معنى القصر - [المصدر السابق ص ٢٣] : « وتزعم أن الارض لم توصف بالعرض - دون الطول - إلا لأفضلية العرض على الطول ... وذلك كقول الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة
على الخائف المطلوب كفه حابل

ولم يقل : كأن بلاد الله وهي طويلة . وقلت لولا أفضلية العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . » وكتب الجاحظ في المعنى نفسه [المصدر السابق ص ١٧ - ١٨] « ورأيتك تقول وإن كان الفضل في النكاية والشدة والصلابة فقصار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدخلاً وأظهر قوة وجلداً : كالحجارة أصلبها الحصى وكالحيات اقتلتها الأفعى ... وكذلك أحرار الطير وبغائثها ... واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الانسان كالناظرين والاثنيين وحبّة القلب وأم الدماغ . » ويستمر الجاحظ في منطقته هذا ويتناول قضية الاحتجاج للتدوير دون التطويل : فيقول [المصدر نفسه ص ١٨] « وتقول : وجدنا الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل ... كذلك الورق والحبّ والتمر والشجر ... وقلت :

والرمح - وإن طال - كان التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصولاً ومفصلاً .
والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً . وكذلك الانسان وجميع الحيوان وقلت :
ولا يوجد التريب إلا في المصنوع دون المخصوص وعلى ان كل مربع ففي جوفه مدور
فقد بان المدور بفضلته وشارك القصر في حصته . »

واتضحَت الإحاطة بالموضوع عند الجاحظ في قصة الكندي الطريقة التالية -
وهو من ظرفاء البخلاء وكان صاحب عقار وله مساجلة طريفة مع معبد الذي استأجر
إحدى دوره . [البخلاء ص ٨١ - ٩٣] « كان الكندي لا يزال يقول للسكان وربما
قال للمجاور « إن في الدار امرأة بها حُلٌّ . والوَحْيُ ربما أسقطت من ريح القِدرِ
الطَّيِّبَةِ . فاذا طبختهم فردوا شهوتها ولو بغُرْفَةٍ أو لَعَقَةٍ فإن النفس يَرُدُّها اليسير . . .
وإن لم تفعل ذلك - بعد إعلامي إياك - فكفارتك عبدٌ أو أمة ألزمت ذلك أم أبيت » .
وتلك حيلة بارعة ابتكرها الكندي - على ما يقول الجاحظ - للابتزاز والحصول على
الطعام مع ثرائه الفاحش : « فكان الكندي ربما يوافي إلى منزله من قِصاع السكان
والجيران ما يكفيه الأيام وكان أكثرهم يفتن إلى الحيلة ويتغافل » . ويسترسل
الجاحظ فيقول على لسان معبد [المصدر السابق الصفحات نفسها] « نزلنا دار
الكندي أكثر من سنة تُروِّج له الكراء ونقضي له الحوائج ونفني له بالشرط . » قال
الجاحظ « وقد فهمتُ ترويح الكراء وقضاء الحوائج فما الوفاء بالشرط ؟ قال في شرطه
على السكان أن يكون له رَوْتُ الدَّابة . . . ونوى التمر وقشور الرمان والغُرْفَةُ من
كل قدر يُطَبِّخ للحَبْلَى في بيته . » ثم قال الجاحظ على لسان معبد « فبينما أنا كذلك إذ
قَدِمَ ابن عم لي ومعه ابن له . وإذا رُقْعَةٌ جاءتني من الكندي وفيها : « إن كان مقام
هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك وإن كان السكن في الليلة الواحدة يجز
علينا الطمع في الليالي الكثيرة ؟ » فكتبتُ إليه « ليس مقامها عندنا إلا شهراً أو
نحوه » فكتب إليَّ : « أن دارك بثلاثين درهماً وأنتم سنة . لكل رأس خمسة دراهم .
فاذا قد زِدْتَ رجلين فلا بُدَّ من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا
بأربعين » . فكتبتُ إليه « وما يضرُّك من مقامهما ؟ وثقل أبدانها على الأرض التي
تحمل الجبال . وثقل مؤنتهما عليّ دونك . فاكتب إليّ بعذرِكَ لأعرفه . » فكتب إليّ
« الخصال التي تدعو إلى ذلك كثيرة . وهي قائمة معروفة - من ذلك : سرعة امتلاء
البالوعة وما في تنقيتها من شدة المؤلة . ومن ذلك : أن الاقدام اذا كثرت كثُر المشي
على ظهور السطوح المَطْيَنَةِ وتَنَقَّلَ الحُصَّ ويتكسر العُتَبُ مع انشاء الأجذاع الكثيرة

الواطئة وتكسرهما لفرط الثقل . وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلقت الرزّات . وإذا كثر الصبيان والعيال والزوار . . . احتيج من صب الماء الى اتخاذ الحبيّة القاطرة والجرار الراشحة الى أضعاف ما كانت عليه . فكم من حائط قد تآكل أسفله وتناثر أعلاه واسترخى أساسه وتداعى بنيانه من قطر حَبٍّ ورشح جرّة ومن فضل ماء البئر ومن سوء التدبير !!! . . . وعلى قدر كثرتم تحتاجون من الخبيز والطبيخ ومن الوقود والتسخين . والنار لا تبقى ولا تذر . وإنما الدور حطب لها . وكل شيء فيها من متاع فهو أكل لها . فكم من حريق قد أتى على أصل الغلّة . فكلفتهم أهلها أغلظ النّفقة . وربما كان ذلك عند غاية العُسرة وشدة الحال . وربما تعدّت تلك الجناية الى دور الجيران والى مجاورة الأبدان والأموال .

. . . ثم تتخذون المطايخ في العلالى على ظهور السطوح وإن كان في أصل الدار فضل وفي صحنها متسع . مع ما في ذلك من الأضرار بالأنفس وبالأموال وتعرض الحرم ليلة الحريق لأهل الفساد وهجومهم مع ذلك على سرّ مكتوم وخبيء مستور : من ضيف ومُسْتَحْفٍ وربّ دار متوارٍ ومن شراب مكروه ومن كتاب مُتَّهَم ومن مال جَمّ أريد دفنه فأعجل الحريق أهله عن ذلك فيه . . . ومن حالات كثيرة وأمور لا يحبّ الناس أن يعرفوا بها . . . ثم ان كثيراً منكم يدافع بالكراء ويماطل بالأداء حتى إذا اجتمعت أشهر عليه فرّ وخلق أربابها جياعا يندمون على ما كان من حسن عملهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرهم انقطاع حقوقهم والذهاب بأموالهم . . . والدار يسكنها الساكن وقد مسحناها ونظفناها لتحسن في عين المستأجر ويرغب فيها الناظر . فاذا خرج ترك فيها مزبلة وخراباً لا تزويله إلا النّفقة الموجبة . ثم لا يدع مترساً إلا سرقة ولا سلماً إلا حمله ولا قفلاً إلا أخذه . . . وقد دعاه التهاون والقسوة الى أن يدق حيث جلس . . . ثم يستكثر من نفسه إخراج عشرة دراهم ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشهر . . . هذا والايام تُنقص وتُبلى الجُدّة وتُفرّق الجمع المجتمع عاملة في الدور كما تعمل في الصخور وتأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطب . ولا نهдам المنازل غاية قريبة ومدة قصيرة . والساكن فيها هو كان المتمتع بها والمتمتع بمرافقها وهو الذي أبلى جدّتها . . . فاذا قسنا العُرم عند انهدامها بإعادتها وبعد ابتدائها وعُزم ما بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها وانتفعنا به من إكراثها خرج على المُسكين من الخسران بقدر

ما حصل للساحن من الربح ومع بغض الساكن للمسكن وحُب المسكن
 للسكن . لأن المسكن يجب صحة بدن الساكن ونفاق سوقه إن كان تاجراً وتحرك
 صناعته إن كان صانعاً . ومحبّة الساكن أن يُشغل المسكن عنه . ثم لا يبالي كيف كان
 ذلك الشغل . إلا أنه كلما كان أشدّ كان أحبّ إليه . . . وعلى أن الساكن ان فترت
 سوقه أو كسدت صناعته ألحّ في طلب التخفيض من أصل الغلّة والحطيطة مما حصل
 عليه من الأجرة . وعلى أنه إن أتاه الله بالأرباح في تجارته والنفاق في صناعته لم يرَ أن
 يزيد قيراطاً في ضريبتة . . . ثم إن كانت الغلّة صيحاحاً دفع أكثرها مقطّعة . وإن
 كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها فُرطة مفتّنة . ثم لا يدع مُزيّفاً . . . ولا ديناراً بهرجاً إلا
 دسّه فيه ودسّه عليه واحتال بكل حيلة وتأتى بكل سبب . فاذا ردّوا عليه بعد ذلك
 شيئاً حلّف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله ولا رآه قط . . . فإن كان
 الرسول جارية رب الدار أفسدها وربما أحبلها . وإن كان غلاماً خدعه . . هذا مع
 التشرف على الجيران والتعرض للجارات ومع اصطيداء طيورهم وتعريضنا
 لسكانهم . وربما استضعف عقولهم وطمع في نسايتهم وعييتهم . فلا يزال يضرب
 لهم بالإسلاف ويغريهم بالشهوات ويفتح لهم أبواباً من النفقات ليعييتهم ويربح
 عليهم . حتى إذا استوثق منهم أعجلهم وغدر بهم حتى يتبعه ببيع دارهم أو
 استرھاتها . . .

وربما قصد الدار غير المستأجرة ومعه امرأة يفجر بها فيجعل استئجار البيوت
 وتصفح المنازل علة لدخولها والقيام ساعة فيها . فإذا استقرّ في المنزل وقضى حاجته
 ردّ المفتاح . وربما اكترى المنزل وفيه رمة فاشتري بعض ما يصلحها ثم يتوخى عاملاً
 جيد الكسوة وجيراناً أصحاب آنية وآلة فاذا شغل وغفل اشتمل على كل ما قدر عليه
 وتركهم يتسكعون . وربما استأجر الى جنب سجن لينقب أهله اليه . أو إلى جنب
 صراف لينقب عليه . . . وربما جنى الساكن ما يدعو الى هدم دار المسكن بأن يقتل
 قتيلاً أو يجرح شريفاً فيأتي السلطان الدار وأربابها أمّا غيب وإمّا أيتام وإمّا ضعفاء
 فلا يصنع شيئاً دون أن يسويها بالأرض . وبعدّ فالدور مُلقاة وأربابها منكوبون
 ومُلقون . وهم أشدّ الناس اغتراراً بالناس . . . وذلك ان من دفع داره الى مجهول لا
 يُعرف فقد وضعها في مواضع الغرر وعلى أعظم الخطر وقد صار في معنى المودع
 وصار المكثري في موضع المودع . ثم ليست خيانة وسوء ولاية!! ثم انكم ربما
 أكرتتم مستغلات غيركم بأكثر مما أكرتتموها منه . . . لقد أهلكتم أصول أموالنا

وأخترتم غلاتنا وحططتم بسوء معاملتكم أثمان دورنا حتى سقطت غلات الدور من أعين المياسير وأهل الثروة ومن أعين العوام والحشوة . . . فأنتم شر علينا من الهند والروم ومن الترك وأعديهم . »

ويستطرد الجاحظ فيقول [المصدر نفسه ص ٩٠ - ٩٢] قال اسماعيل بن غزوان « لله درُّ الكندي !! ما كان أحكمه وأحضر حجته وأنصع جبينه وأدوم طريقته !!! رأيته وقد أقبل على جماعة ما فيها إلا مُفسد . . . فقال تسمون من منع المال من وجوه الخطأ وحصنه خوفاً من الغيلة وحفظه إشفاقاً من المذلة بخيلاً تريدون بذلك ذمة وشينه . وتسمون من جهل فضل الغني ولم يعرف ذلة الفقر . وأهان نفسه بإكرام غيره جواداً تريدون بذلك حمده ومدحه . . . فمدحتهم من جمع صنوف الخطأ وذمتهم من جمع صنوف الصواب . . . إنما المال لمن حفظه وإنما الغنى لمن تمسك به . ولحفظ المال بُنيت الحيطات وغُلقت الأبواب واتخذت الصناديق وعملت الاقفال ونُقشت الرسوم والخواتيم وتعلّم الحساب . . وزعمت اننا سميننا البخل إصلاحاً كما سمى قوم الهزيمة انحيازاً والعزل عن الولاية صرفاً . . . أنتم الذين سميت السرف جوداً وسوء نظر المرء لنفسه ولعقبه كرمًا . . . فلو لم يكن من منفعة الغنى إلا أنك لا تزال معظماً عند من لم ينل منك قط درهماً لكان الفضل في ذلك بيناً والربح ظاهراً . ولو لم يكن من بركة الثروة ومن منفعة اليُسْر إلا أن ربّ المال الكثير لو اتصل بملك كبير وفي جلسائه من هو أوجب حرمة وأقدم صحبة وأصدق محبة وأمتع إمتاعاً وأكثر فائدة وصواباً إلا أنه ضعيف الحال قليل ذات اليد ثم أراد الملك أن يقسم ماله أو يوزع بينهم ظرفاً لجعل حظّ الموسر أكثر وإن كان في كل شيء دون أصحابه وحظ الآخر أقل وإن كان هو في كل شيء فوق أصحابه . »

وقد ظهرت ناحية الإحاطة بتفاصيل الموضوع الذي يتناوله الجاحظ بالبحث في وصفه الكتاب وأهميته في حياة الانسان [كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٨ - ٤٢] : « الكتاب نعم الذخر والعقدة والجلس والعدّة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم الأنيس لساعة الوحدة . ونعم المعرفة ببلاء الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزِيل . . . ان شئت كان أعيا من باقل وأبلغ من سحبان وائل وإن شئت سرتك نواذره وشجتك مواعظه . . . وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن ولا روضة تُنقل من حجرة الى حجرة . . . هو ينطق عن الموتى ويُترجم عن الأحياء . ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك . ولا أعلم جاراً آمن وخليطاً أنصف ولا رفيقاً

أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إحلالاً وإبراماً ولا أبعد من مرء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا آنف عن قتال من كتاب . ولا أعم بياناً ولا أحسن موافاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمراً ولا أقرب مجتنى وأسرع أحراكاً ولا أوجد في كل مكان من كتاب . ولا أعلم نتائجاً في حدائثه سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكيم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النائية والأمثال السائدة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته عباً ورده ضمناً وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك !!! . . .

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يُقْلِبُك والرفيق الذي لا يَمْلُك والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يستبطأك والصاحب الذي لا يُريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطل إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصدقة الملوك . يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم إن افتقرت إليه لم يحقرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح اعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء . وإن أمثل ما يقطع به القراء ساعات نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر في كتاب . . ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه اليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة .

- ١٥ -

ثالثاً : الأستاذ : أما الناحية الثالثة التي يتميز بها تفكير الجاحظ ونظرتة السايكولوجية العميقة للأمر التي يتناولها بالتحليل فهي استطراداته الممتعة ومداعباته ومُلَحْه التي يثرها في ثنايا أبحاثه هنا وهناك . والاستطرادات المشار اليها تتجلى بأوضح أشكالها في كتاب الحيوان : وهو الكتاب الذي ألفه وهو مفلوج

ويتضمن خلاصة علمه وتجاربه بالإضافة بالطبع على تناوله فيه حياة الحيوانات . كما تتجلى استطراداته في كتاب البيان والتبيين الذي يبدو أنه وضعه قبل كتاب الحيوان ، وفي كتاب البخلاء ورسالة الترييح والتدوير ، وقد برز الجاحظ في استطراداته عالم نفس بارع من حيث قدرته على استخدام ظاهرة الاستطراد نفسها ومن ناحية محتوى الاستطرادات الممتع والمتنوع . كما برز الجاحظ أيضاً عالم نفس لبق يلاحظ القاريء الذي يعثره الفتور أو الضجر عند مواصلته قراءة بحث طويل يتصف بالجدية وربما بالجهود أيضاً . وظاهرة الملل هذه ظاهرة سايكولوجية متأصلة ومنتشرة لدى عموم القراء إلا في حالات نادرة تحصل في بعض الأحيان حيناً ينغمس القاريء في موضوع معين يستهويه أو يتعلق بقضية بالغة الأهمية بالنسبة له . عندئذ لا يحصل السأم في مثل هذه الحالة بل يحل محله أحياناً تعب نسبي يستلزم التوقف مؤقتاً عن مواصلة القراءة لغرض الاستجمام لمواصلتها بعد ذلك . وقد أشار الجاحظ الى ظاهرة الضجر في كتاب الحيوان [ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨] « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه . وأول ذلك العلة الشديدة . والثانية قلة الاعوان . والثالثة طول الكتاب . . . وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب وإطالتي الكلام وأطنابي في القول بيت ابن هرمة حيث يقول :

إنَّ الحديثَ تُغَرُّ القومَ خلوتُهُ حتى يلجَّ بهم عيٌّ وإكثارُ

أما العامل الذي دفع الجاحظ إلى الاعتذار عن التطويل فقد أشار إليه [المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥٥] « ولولا سوء ظني بمن يُظهر التماس العلم في هذا الزمان ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجْتُ - في مداراتهم واستمالتهم وترفق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب - إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة الاعتذار . » ولهذا فانه يقول [المصدر السابق ج ١ ص ٧] « على أنني قد عزمتُ - والله الموفق - أن أُشجَّح هذا الكتاب بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قاريء هذا الكتاب من باب الى باب . » ثم يخاطب القاريء المحتمل - وهو أضاف كما سنرى - بقوله [المصدر السابق ج ١ ص ٦] « وإن كنا قد أملنا بالجد وبالأحاديث الصحيحة والمروحة لتكثر الخواطر وتُشحذ العقول فإننا سننشطك ببعض البطالات . . . وأنا استظرف أمرين استظرافاً شديداً . أحدهما : استماع حديث الأعراب . والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يعلمان منه شيئاً . »

وقد أشار الجاحظ في استطراداته - التي سيأتي ذكر الكثير منها - في كتاب البيان والتبيين أيضاً عندما قال [البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٦٦] إنه يريد « أن يداوي مؤلفه نشاط القاريء له ويسوقه الى حظه بالاحتيال له : فمن ذلك أن يُزجه من شيء الى شيء ومن باب الى باب بعد أن لا يخرج من ذلك الفن ومن جمهور ذلك العلم . »

واستطرادات الجاحظ طريفة وممتعة ومهمة أيضاً استمدها في الأصل من قراءاته المستفيضة ومن تجاربه الغزيرة وملاحظاته الدقيقة للأشخاص والأحداث في زمانه . وهي تجمع بين الجد والهزل والتهكم . وفيها راحة نفسية له ولقرائه على اختلاف مشاربهم وتباين مستويات ثقافتهم ومنازلهم الاجتماعية . على انها - مع ذلك وربما بسببه - تتركز جميعاً ضمنياً وبشكل صريح أحياناً حول موضوع واحد هو موقفه من قضايا مجتمعه الأساسية آنذاك : العلمية والسياسية والاقتصادية . وهذه طائفة منها ذكرناها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر . وقد وضعناها في مجاميع متماثلة منها مثلاً :

١ : باب المفارقات : [الحيوان ج ٦ ص ٢١٥] « ذُكر لي عن ابي بكر الهذلي قال كنا عند الحسن البصري إذ أقبل وكيع بن أبي الأسود فجلس فقال : يا ابا سعد ما تقول في دم البراغيث تصيب الثوب أيصل فيه ؟ فقال الحسن : يا عجباً ممن ولغ في دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث !! » .

٢ : باب الفراسة : [المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٥] « حجّ إلياس بن معاوية فسمع نباح كلب فقال هذا كلب مشدود . ثم سمع نباحه فقال قد أرسل . فانتبهوا الى أصحابه فسألوه فكان كما قال . فقال له غيلان أبو مروان : كيف علمت أنه موثق وأنه أطلق ؟ قال : نباحه - وهو موثق - يُسمع من مكان واحد . فلما أطلق سمعته يقرب مرةً ويبعد مرةً ويتصرف في ذلك . » .

٣ : باب التسامح والترفع [البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤٠] « حين مرّ عيسى بن مريم ببعض الخلق فشتموه . ثم مرّ بآخرين فشتموه . فكلّموا قالوا شراً قال خيراً . فقال له رجل من الحواريين : كلما زادوك شراً زدتهم خيراً حتى كأنك إنما تُغريهم بنفسك وتحثهم على شتمك !!! قال : كل انسان يُعطي ما عنده . » وذكر الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٨] : « أن رجلاً وقف « على عامر الشعبي فلم يدع قبيحاً إلا رماه به فقال له عامر : إن كنت كاذباً يغفر الله لك . وإن كنت صادقاً يغفر الله لي . »

٤ : باب أهمية المهن الحرة : [المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩١] كتب الجاحظ « قيل إن عبد الملك بن مروان قال حين ثَقُلَ عليه المرض - ورأى غَسَّالاً يلوي ثوباً بيده - وَدَدْتُ أَنْ كُنْتُ غَسَّالاً لَا أَعِيشُ إِلَّا بِمَا اكْتَسَبَ يوماً بيوم . فَذُكِرَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُمْ - عِنْدَ الْمَوْتِ - يَتَمَنُّونَ مَا نَحْنُ فِيهِ وَلَا نَتَمَنَّى عِنْدَ الْمَوْتِ مَا هُمْ فِيهِ . »

٥ : تَمَتَّعَ الْأَغْنِيَاءُ بِخَيْرَاتِ بَغْدَادَ [البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢٧] استشهد الجاحظ ببيتي طارق بن أثال الطائي :

مَا أَنْ نَزَالَ بِبَغْدَادٍ يَزَاحِنَا عَلَى الْبَرَاذِينِ أَشْبَاهُ الْبَرَاذِينِ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ أَمْوَالاً وَمَنْزَلَةً مِنَ الْمُلُوكِ بَلَا عَقْلٍ وَلَا دِينَ

٥ : باب قول الحق : [المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٧] « قال أعرابي لهشام بن عبد الملك : أَنْتَ عَلَيْنَا مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَعوَامٍ . فَعَامٌ أَكَلْتُ الشَّحْمَ . وَعَامٌ أَكَلْتُ اللَّحْمَ . وَعَامٌ انْتَقَى الْعِظْمَ . وَعِنْدَكُمْ أَمْوَالٌ . فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَادْفَعُوهَا لِعِبَادِهِ . وَإِنْ كَانَتْ لِعِبَادِهِ فَادْفَعُوهَا إِلَيْهِمْ . وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا بِهَا . »

٥ : باب « اختلاف الرأي لا يفسد للمراء قضية » [المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٠] : كتب الجاحظ « وَلَمْ يَرَ النَّاسَ أَعْجَبَ مِنَ الْكَمِيتِ وَالطَّرْمَاحِ : وَكَانَ الْكَمِيتُ عِدْنَانِيًّا عَصِيًّا وَكَانَ الطَّرْمَاحُ قَحْطَانِيًّا عَصِيًّا . وَكَانَ الْكَمِيتُ شَعْبِيًّا مِنَ الْغَالِيَةِ وَكَانَ الطَّرْمَاحُ خَارِجِيًّا مِنَ الصُّفَرِيَّةِ . وَكَانَ الْكَمِيتُ يَتَعَصَّبُ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ . وَكَانَ الطَّرْمَاحُ يَتَعَصَّبُ لِأَهْلِ الشَّامِ . وَبَيْنَهُمَا - مَعَ ذَلِكَ - مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْمَخَالِطَةِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ نَفْسَيْنِ قَطُّ . ثُمَّ لَمْ يَجْرَ بَيْنَهُمَا صَرَمٌ وَلَا جَفْوَةٌ وَلَا إِعْرَاضٌ وَلَا شَيْءٌ مِمَّا تَدْعُو هَذِهِ الْخِصَالَ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَرَ النَّاسَ مِثْلَهُمَا إِلَّا مَا ذَكَرُوا فِي حَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ الْإِبَاطِيِّ وَهْشَامِ بْنِ الْحَكَمِ الرَّافِضِيِّ . فَأَنْهَاهَا صَارَا إِلَى الْمَشَارَكَةِ بَعْدَ الْخِلَاطَةِ وَالْمَصَاحِبَةِ . »

٦ : باب عدالة الاسلام : أشار الجاحظ الى محاكمة الامام علي وهو خليفة امام القاضي شريح في نزاعه على درع مع أحد المواطنين النصارى . وإلى محاكمة عمر بن العزيز امام خلافته في نزاعه مع مواطن مصري من أهل حلوان وإصدار القاضي حكماً ضد الخليفة . وإلى محاكمة المأمون وهو خليفة لدى القاضي يحيى بن اكنم .

٦ : العوامل الخفية التي تدعو الخلفاء الى البطش بوزرائهم : [البيان

والتبيين ج ٢ ص ٣٧٧] : قال الجاحظ « حدثنا احمد بن دؤاد قال قال لي المامون : لا يستطيع الناس أن يُنصفوا الملوك من وزرائهم . ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم وبين صنائعهم وبطانتهم . وذلك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة . ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في ماله . . . وهناك خيانات في صلب الملك أو في بعض الحرم فلا يستطيع الملك ان يكشف للعامة موضع العورة في الملك . ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما تستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير بسوط للعامة ولا معروف عند أغلب الخاصة . »

٧: تباين مواقف الفرد عند تباين الظروف : [البيان والتبيين ج ١ ص ٣٩٤ - ٣٩٥] « مرَّ غيلان بن خرشة الضبي مع عبدالله بن عامر - أمير البصرة - على نهر أم عبدالله الذي يشق البصرة . فقال عبدالله : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر !!! فقال غيلان : أجل - أيها الأمير - يُعلم القوم صبيانهم السباحة فيه ويكون لسقيهم ومسيل مياههم وتأتيهم فيه مبرتهم . ثم مرَّ غيلان بساير زيادا - أمير البصرة بعد ابن عامر - على ذلك النهر وقد كان عادى ابن عامر . فقال زياد : ما أضّر هذا النهر بأهل هذا المصر !!! فقال غيلان أجل - أيها الأمير - تنز منه دورهم وتغرق فيه صبيانهم ومن أجله يكثر بعوضهم . » تلك ظاهرة اجتماعية معروفة يجتمع فيها الشيء ونقيضه ويستوي فيها المدح والقدح . وهي تقع في صميم ديالكتيك الحياة وفي صميم الجانب الديالكتيكي في تفكير الجاحظ الذي مرَّ بنا الحديث عنه . وهي ظاهرة موضوعية - بنظرنا - لا تنطوي دائماً وحماً أو بالضرورة على التلون أو التذبذب كما قد يبدو على السطح لأول وهلة . وقد أبدى الجاحظ نفسه - وفق منطق الديالكتيكي الأصيل - ملاحظات بصدها طريقة وعميقة عندما قال « ان العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره . فاذا ابتلي به فخر به . ولكن لا يفخر لنفسه من جهة ما هجا به غيره . فافهم هذا . فان الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم يمدحون الذي يهجون . وهذا باطل . ليس شيء إلا وله وجهان . فاذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين . وإذا ذموا ذكروا اقبح الوجهين » . وتحضرنا - في هذه المناسبة - حادثة طريقة رواها صاحب زهر الآداب [ص ٣٨] ينسجم جوهرها مع الملاحظات السايكولوجية العميقة التي أبداه الجاحظ كما بينا . قال صاحب زهر الآداب « وقد إلى رسول الله الزبير بن بدر وعمرو بن الأهتم . فقال الزبيرقان : يا رسول الله أنا

سيد تميم والمطاع فهيم والمجابه منهم آخذ لهم بحقهم وأمنعهم من الظلم . وهذا يعلم ذلك - يعني عمرا . فقال عمرو : أجل يا رسول الله انه مانعٌ لحوزته مطاع في عشرته شديد المعارضة فيهم . فقال الزبرقان : أما والله قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي . فقال عمرو : « أَمَّا لَئِنْ قَالَ مَا قَالَ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُهُ إِلَّا ضَيْقَ الْعُطْنِ زَمْرُ الْمَرْوَةِ أَحْمَقُ الْأَدَبِ لَيْثِمُ الْحَالِ حَدِيثُ الْغَنَى » . فرأى الكراهة في وجه رسول الله لما اختلف قوله فقال : يا رسول الله رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ وَغَضِبْتُ فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا عَلِمْتُ . وما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الثانية . »

٨ : وقد وردت استطرادات طريفة كثيرة منشورة في كتب الجاحظ منها بالإضافة الى ما ذكرناه منها ما ورد في كتاب البيان والتبيين [ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٢] في معرض الإجابة الحسنة : « أَحَبُّ الرَّشِيدِ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى أَبِي شَعِيبِ التَّلَالِ كَيْفَ يَعْمَلُ الْقِلَالُ . فَأَدْخُلُوهُ الْقَصْرَ وَأَتُوهُ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ آلَةِ الْعَمَلِ . فَبَيْنَمَا هُوَ يَعْمَلُ إِذَا هُوَ بِالرَّشِيدِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ . فَلَمَّا رَأَاهُ نَهَضَ قَائِمًا . فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : دُونَكَ مَا دُعِيتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي لَمْ أَتَكُ لَتَقُومَ لِي وَإِنَّمَا أَتَيْتُكَ لَتَعْمَلَ بَيْنَ يَدَيَّ . فَقَالَ وَأَنَا لَمْ آتِكَ لِيَسُوءَ أَدْبِي وَإِنَّمَا أَتَيْتُكَ لِأَزْدَادِ بَكَ فِي كَثْرَةِ صَوَابِي . »

٩ : وهناك استطرادات أخر كثيرة في التهذيب . منها قول اكثم بن صيفي « مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ » يعني لسانه . ومنها قول المُهَلَّبِ لَبْنِيهِ « اتَّقُوا اللِّسَانَ فَإِنِّي وَجَدْتُ الرَّجُلَ تَعَثَرَ قَدَمُهُ فَيَقُومُ مِنْ عَثَرِهِ . وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فَيَكُونُ فِيهِ هَلَاكُهُ . » ومنها قوله « لَمَّا قُدِّمَ سَقْرَاةٌ لِيُقْتَلَ بِكَتِ امْرَأَتِهِ . فَقَالَ لَهَا مَا يَبْكِيكِ ؟ قَالَتْ تُقْتَلُ ظُلْمًا . قَالَ : أَكُنْتُ تَحِينُ أَنْ أَقْتَلَ حَقًّا !!! أَوْ أَقْتَلَ ظُلْمًا ؟ وَمِنْهَا أَيْضًا أَنْ مَصْعَبَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَسْرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ . فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ !! مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ الْحَسَنَةَ فَأَتَعَلَّقُ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : رَبِّي أَسْأَلُ مَصْعَبًا فِيمَ قَتَلَنِي . فَقَالَ أَطْلُقُوهُ . فَقَالَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ عُمْرِي فِي خَفِضٍ عَيْشِي . فَقَالَ اعْطُوهُ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ . » واستشهد الجاحظ بأبيات علي بن الجهم لما حبسه المتوكل بتحريض احمد بن أبي دؤاد على ما يذكر الرواة :

قَالَتْ حُبْسْتُ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي	حَسْبِي وَآيٌ مَهْنَدٌ لَا يُغْمَدُ
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غَيْلَهُ	كِبْرًا وَأَوْبَاشَ السَّبَاعِ تَرْدُدُ
وَالنَّارَ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ	لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثْرَهَا الْأَزْدُ

والبدر يُدركه الظلامُ فتَجَلِي
والحيسُ ما لم تَغْشِه لدنيّة
بيتٌ يُجددُ للكريم كرامة
يا احمدُ بنُ أبي دؤادٍ إنّما
أيامُه وكأنّه متجدّد
شنعاءُ نِعَمَ المنزلُ المتورّد
ويُزار فيه ولا يزور فيحمد
تُدعى لكل كريمة يا احمد
ان الذين سَعَوْا اليك بباطل
اعداءُ نعمتك التي لا تُجحد

وذكر الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج ١ ص ٨٣] «قال علي «قيمة كل امرئ ما يحسنه». فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية..» وقال الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ج ١ ص ٨٤] «قد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح الدنيا بخدافيرها في كلمتين فقال «صلاح شأن جميع التعاشي والتعاشر ملء مكيال ثلثاه فِطْنَةٌ وَثُلْثُهُ تَغَاوُلٌ». فلم يجعل لغير الفطنة نصيباً من الخير ولا حظاً من الصلاح لأنّ الانسان لا يتغافل إلا عن شيء فِطْنَه له». وكتب الجاحظ [المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١٦ - ٢١٧]: «دخل زُفر بن الحارث على عبيد الملك بن مروان بعد الصلح فقال عبد الملك له: ما بقي من حُبِّك للضحك؟ قال: ما لا ينفعني ولا يضرُّك. قال: شدّ ما أحببتموه معاشر قيس... قال زفر: أحبيناه ولم نداسه. ولو كنا داسيناه لقد كنا أدركنا ما فاتنا منه. قال ما منعك من مؤاساته؟ يوم المَرَج؟ قال زفر: الذي منع أباك من مؤاساة عثمان يوم الدار. وكتب الجاحظ أيضاً [البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٥] «قال المهلب عجب لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. وكتب أيضاً [المصدر نفسه ج ٣ ص ١٧٥] «قال السكن الحُرشي اشتريت من أبي المنهال بن سلامة شاةً بستين درهماً. فقلت تكون عندك حتى آتيك بالثمن. قال ألسنت مسلماً؟ قلت بلى. قال فخذها. فأخذتها حتى انطلقت بها. ثم أتيتها بالستين. فأخرج منها خمسة دراهم وقال لي اعلفها بهذه. وكتب أيضاً [المصدر نفسه ج ٣ ص ١٦٥] «قيل لبعض العلماء من شرُّ الناس؟ قال من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً. وكتب أيضاً [المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠] «سئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصره. فقال: تلك دماء كفَّ الله يدي عنها فأنا لا أحب أن أغمس لساني فيها. وكتب الجاحظ أيضاً [المصدر السابق ج ٤ ص ٦٤] «دخل عمرو بن عبيد على المنصور وهو يومئذ خليفة... فقال عِظني يا أبا عثمان. فقال عمرو: ان الله أعطانا الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها. فلو أن هذا الأمر الذي صار اليك بقي فيمن كان قبلك لم

يصل اليك . »

١٠ : طرائف لغوية : كتب الجاحظ [البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٧] « قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة : أخرجوا إليّ رجلاً من عقلائكم أسأله عن بعض الأمور . فأخرجوا اليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بُقيلة وهو يومئذ ابن خمسين وثلاثمائة سنة . فقال له خالد : من أين أقص أثرك ؟ قال من صُلْب أبي . قال فمن اين خرجت ؟ قال من بطن أمي . قال فعلام أنت ؟ قال على الأرض . قال ففيم أنت ؟ قال في ثيابي . قال ماسيتك ؟ قال عظم . قال أتعقل لاعقلت ؟ قال أيّ والله وأقيّد . قال ابن كم انت ؟ قال ابن رجل واحد . قال كم أتى عليك من الدهر ؟ قال لو أتى عليّ شيء لقتلني . قال ما تزيدني في مسألتك إلا غمّاً . قال ما أجبتك إلا في مسألتك » . وكتب الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج ١ ص ١١٤] « قال عبد الكريم بن رَوْح الغفاري حدثني عمر الشمري قال قيل لعمر بن عبيد ما البلاغة ؟ قال ما بلغ بك الجنة وعدّ لك عن النار وبصرك مواقع رشدك وعواقب غيئك . قال السائل ليس هذا أردت . قال من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع . ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول . قال ليس هذا أردت . . . قال : كانوا يخافون من فتنه القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنه السكوت ومن سقطات الصمت . قال السائل هذا أريد . قال عمرو فكأنك إنما تريد تحيّر اللفظ في حسن الإفهام . قال نعم . » وقال أيضاً [المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٥] « كان يقال اللحن في المنطق أقبح من آثار الجُدري في الوجه . . . وقال أبو أيوب السجستاني : تعلّموا النحو فانه جمال للوضيع وتركه هُجْنَةٌ للشريف . » وقال الجاحظ أيضاً [المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٥] « لحن الوليد بن عبد الملك على المنبر فقال الكروي : لا والله إن رأيته على هذه الاعداد قط فأمكنني أن أملاً عيني منه من كثرته في عيني وجلالته في نفسي . فاذا لحن هذا اللحن الفاحش صار عندي كبعض اعوانه . »

١١ : من باب التسلية : كتب الجاحظ [البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨٤] « رفع إعرابي يده بمكة قبل الناس فقال : اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس . » وكتب أيضاً [البخلاء ص ٢٣ - ٢٤] « قيل إن أحد الولاة بينما هو يوماً جالس في مجلس وهو مشغول بما به اذ نجم شاعر من بين يديه فأنشد شعراً مدحه فيه وقرّطه ومجّده . فلما فرغ قال أحسنت . ثم اقبل على كاتبه فقال اعطه عشرة آلاف درهم . ففرح

الشاعر فرحاً يُستطار له . فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده . فلما رأى فرحه تضاعف قال لكاتبه - اعطه أربعين ألفاً . فكاد الفرع يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال الشاعر : انت - جُعِلْتُ فِدَاكَ - رجل كريم وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددتُ فرحاً زِدْتَنِي في الجائزة . وقبولى هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر لك . فدعا له وخرج . فاقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله !! هذا كان رضي منك بأربعين درهماً تأمرت له بأربعين ألف !! قال يا احمق إنما هذا رجل سرنا بكلام وسررناه بكلام . هو حين زعم أنني أحسن من القمر وأشد من الأسد . . . جعل في يدي شيئاً من هذا ؟ . . . ألسنا نعلم انه قد كذب ؟ ولكنه سرنا حين كذب لنا . فنحن أيضاً نسره بالقول ونأمر له بالجوائز وإن كان كذباً . فيكون كذب بكذب وقول بقول . فأمّا أن يكون كذب بصدق وقول بفعل فهذا هو الخسران الذي ما سمعنا به . »

- ١٦ -

رابعاً : عنف الجاحظ وتجنّيه : اتّصف تفكير الجاحظ بالعنف اللامشروع أحياناً وبالتجني . ولعنفه هذا مضامين سايكولوجية عميقة من ناحية الجاحظ نفسه ومن ناحية من يوجّه الجاحظ إليه ذلك العنف المشرب بالتأنيب . وقد تجلّى ذلك بأوضح صورة في رسالة التريب والتدوير وبخاصة ديباجتها [ص ٥ - ٦] « قال عمرو بن بحر الجاحظ : كان أحمد بن عبد الوهاب^(١٠) مربّعاً وتحسبه - لسعة جُفَرَتِه

(١٠) وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر وتحاشنه وتنافره وتراهنه !! ثم لا تفعل ذلك إلا في المحافل العظام وبحضرة كبار الحكماء . . . وأشهد بعدُ أنك تحاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله . . . وتستجمل النظم وتستبرد الأصمعي وتستغبي قيس بن زهير وتستخف بالأحنف بن قيس وتبارز أبا الحسن . . . ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد المرء ومن حد الأحياء إلى حد الموتى . . . وأما سبب الجفوة بين أحمد بن عبد الوهاب وبين الوزير ابن الزيات فقد ذكرها ابن الأمير في الجزء السابع من « الكامل في التاريخ » كما بينا .

يبدو أن الجاحظ كان متجنّباً على أحمد بن عبد الوهاب وأنه بالغ في استهزائه به وجسد بتحويل بعض خصائصه السلبية الجنسية والثقافية ليحط من منزلته بنظر الناس . ويبدو أيضاً أن أحمد هذا كان أحد كتّاب الأمراء . وإن شقيقه صالحاً كان أيضاً كاتباً لصلاح بن الرشيد . وله أخبار أدبية ومواقف حسنة وردت في كتاب الأغاني (في سياق أخبار خالد الكاتب) . كما ورد بعض أخباره في تاريخ الأمم والملوك للطبري أثناء ذكر حوادث عام ٢٢٣ هـ . وقد ساهم في فتح عمورية واشترك قبل ذلك في حرب بابك الحُرَمي وولاه

واستفاضة خاصرته - مدوراً . وكان جَعَدَ الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدَّعي السَّبَاطَةَ والرَّشَاقَةَ . وكان كبير السن متقاوم الميلاد وهو يدَّعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . وكان ادَّعَاؤُهُ لأصناف العلم على قَدَر جهله بها . وتكلَّفه للإيانة عنها على قدر غباوته عنها . وكان كثير الاعتراض لهجاً بالمرء شديد الخلاف كَلِيفاً بالمجاذبة متتابعاً في العنود . . . وكان قليل السَّماع غُمراً وصُحُفياً غَفْلاً لا ينطق عن فكر ويثق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغُمر واستبصار الحق . يَعدُّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسد العلماء من غير أن يتعلّق منهم بسبب . وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لأسم الأدب . « وعنف الجاحظ يتّضح بحادثة طريفة رواها ياقوت [معجم الأدباء ج ٦ ص ١٠٤ - ١٠٥] تتعلق بأبي خلف سلام بن زيد الأندلسي الذي قصد الجاحظ من الأندلس إلى بغداد ثم إلى سر من رأى فالبصرة التي وجده فيها بين عدد من تلاميذه فسأل « أيُّكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحركها في وجهي . وقال من أين ؟ قلت من الأندلس . فقال طينة حمقاء . فما الاسم ؟ قلت سلام . قال اسم كلب القرّاد . ابن من ؟ قلت ابن يزيد . قال بحق ما صرّت . أبو من ؟ قلت أبو خلف . قال كلب زبيدة . ما جئت تطلب ؟ قلت العلم . قال ارجع فانك لا تصلح له . قلت له ما انصفتني . قال فترى حولي عشرين صبيّاً ليس فيهم ذولحية غيري فكان يجب أن تعرفني بها . » ويجري هذا المجري أن أبا جعفر الاسكافي نقض كتاب العُثمانيّة للجاحظ . وعندما علم الجاحظ بذلك دخل سوق الوراقين ببغداد ونادى بأعلى صوته : مَنْ هذا الغلام السّوّادي الذي بلغني أنّه تعرّض لنقض كتابي ؟ وأبو جعفر جالس فاخفى منه حتى لم يره .

- ١٧ -

لقد مرَّ بنا القول أن الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ صبغت كتاباته جميعاً واتّضحت بأجلى صورها في رسالة التربيع والتدوير وفي كتاب البخلاء وفي رسالة القيّان وفي الأقسام غير المفقودة من كتاب اللصوص . وبما أن موضوع القيّان وموضوع اللصوص موضوعان متمعان وللجاحظ في كل منهما رأي طريف وجريء غير مألوف [بمقاييس مجتمعه وعصره ومقاييسنا الاجتماعية الراهنة] فقد أثّرنا أن نعالج

المعتصم اليمن ٢٢٤ هـ وبقي كذلك إلى أن غضب عليه الخليفة وعزله . ثم أعاده عليها عام ٢٣١ هـ وبعثه على حج ذلك العام . أما العامل الرئيس في موقف الجاحظ منه فيبدو أنه صدى لجفوة حصلت بين أحمد هذا وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أشار إليها ابن الأثير كما بينا .

كلأ منها على انفراد وأن نترك الجاحظ نفسه يتحدث بصورة مباشرة في موضوع القيان بالذات وأن يتحدث بشكل غير مباشر عن اللصوص المفقود عن طريق الذين احتفظوا بأجزاء منه .

كتب الجاحظ في موضوع القيان [رسائل الجاحظ / مكتبة الخانجي / ١٩٦٢ / القاهرة ص ٩٢-١٤٣]

« من أبي موسى بن اسحق ومحمد بن خالد وأبي الخيار . . . وخاقان بن حامد . . . واخوانهم المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للذة المتمتعين بالقيان والأخوان . . . الى أهل الجهالة والجفاء وغلظ الطبع ونساء الحس . . . أمأً بعدُ فانه ليس كل صامت عن حجته مبطلاً في اعتقاده ولا كل ناطق بها لا برهان لديه محققاً في انتحاله . والحاكم العادل من لم يعجل بفعل القضاء دون استقصاء لحجج الخصماء . . . وقد كنا مسكينين عن القول بحججتنا فيما تضمنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكثف بظهوره ومبين عن نفسه . . . وعلمنا أن خصماءنا وإن موهوا وزخرفوا غير بالغين للغلبة عند ذوي العدل دون الاستماع منا . . . الى أن تقام الأمر وعيل الصبر . . . وبعدُ فان الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن ويحتاج البائع والمبتاع الى أن يستشفا العلق ويتأملأً شيئاً يجب فيه خيار الرؤية المشترطة في جميع البياعات وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح . » ثم يستطرد الجاحظ فيصف القينة ويحلل سلوكها وعلاقاتها الاجتماعية بالذين يقعون فريسة في شراكها ويكشف عن جوانبها السايكولوجية العميقة بشكل يثير الإعجاب والاستغراب : « إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تنجح في ودّها لأنها مكتسبه ومجبولة على نصب الحيلة والشرك للمتربصين ليقترحموا في أنشطتها . فاذا شاهدها المشاهد رمته بالحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في اشعار الغناء ولهيئت باقتراحاته ونشيطت للشرب عند شربه وأظهرت الشوق الى طرد مكثه والصباية لسرعة عودته والحزن لفراقه . فاذا أحست ان سحرها قد نفذ فيه بدأت تزيد فيما كانت قد شرعت فيه . وأوهمته ان الذي بها أكثر مما به منها . ثم كاتبته تشكو اليه هواه وتقسم له انها مدت الدواة بدمعها . . . وأنها لا تريد سواه . . . ولا تنوي انحرافاً عنه . وأنها لا تريد له بل لنفسه وأنها لا تنام شوقاً اليه ولا تهناً بالطعام وجداً به . وأنها جمعت قينة من دموعها من البكاء عليه . » ويسترسل الجاحظ في وصف موقف القينة من فريستها ويتغلغل عميقاً في

نفسها ومشاعرها المفتعلة الزائفة » وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغور والحيلة في استنطاق ما يحويه المربوط - أي الذي تجعله أسير خداعها - والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع ويتغايرون عند الاجتماع . فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالآخرى . وتغمز هذا بذاك . وتُعطي واحداً سرّاً والآخر علانيتهما وتوهمه انها له دون الآخر وأن الذي تُظهر خلاف ضميرها . وتكتب اليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرّماً بالباقيين وحرصها على الخلوة به دونهم . « ثم يتحدث الجاحظ عما تجنيه القينة وصاحبها من مال وجاه ونفوذ ممن افترستهم » ويرسلون الى بيت مالها بصنوف الهدايا . . . فالذي يقاسيه الناس من عيلة العيال . . . هو - أي مالها - عنه بمعزل . . . لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السديق ولا عزة الزيت . . . ثم يستقرض إذا أعسر ولا يُردّ ويسأل الحوائج فلا يُمنع . . . والمقين - أي صاحب القينة - أو مالها - يأخذ الجوهر ويعطي العَرَض ويفوز بالعين ويعطي الأثر ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفلذ اللجين والعسجد . . . « ويسترسل الجاحظ فيتحدث عن موقف المقين من علاقة القينة بزبائنها » ويُعرض عن الغمزة ويغفر القبلة ويتغافل عن الإشارة ويتعمى عن المكاتبه ويتناسى الجارية يوم الزيارة « ثم يتحدث الجاحظ عما يجنيه المقين من الزبائن على اختلاف مشاربهم ومواقفهم الاجتماعية : « ويُعدّ لكل مربوط على حدة ويعرف ما يصلح لكل منهم كما يميّز التاجر أصناف تجارته فيُسعرها على مقاديرها . فمن كان ذا جاه من الربطاء اعتمد على جاهه وسأله الحوائج . ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه مالاً بلا عينة . ومن كان من السلطان بسبب كفيّة به عادية الشُرط والاعراف . . . » ويختتم الجاحظ هذه الرسالة التي ابتدعها على ما يبدو وجعلها لسان الحال لا لسان المقال بالعبارات التالية « هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة الى من سميناها في صدرها . فان كانت صحيحة فقد ادينا منها حق الرواية . والذين كتبوها أولى بما قد تقلّدوا من الحجة منها وان كانت منحولة فمن قبل الطفيليين . »

أمّا في كتاب اللصوص - أو الأجزاء الموجودة لدينا منه بتعبير أدق - فيتحدث الجاحظ عن السرقة باعتبارها مهنة أو حرفة كغيرها من الحرف . وقد أورد عبارات على لسان عثمان الخياط أحد كبار مؤيديهم يحتج للسرقة والسراق . فقال [كتاب الفرج بعد الشدة / للتنوخي ص ١١٩ - ١٢٠] « لم تزل الأمم يسبي بعضها بعضاً

وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ غَزَاً وَمَا يَأْخُذُونَهُ غَنِيمَةً وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الْكَسْبِ . « ثُمَّ يَخَاطَبُ
 لِلصُّوَصِ عَلَى لِسَانِ الْخَبَائِطِ أَيْضاً » وَأَنْتُمْ فِي أَخْذِ مَالِ الْعُدَّةِ وَالْفَجْرَةِ أَغْدَرُ : فَسَمُّوا
 أَنْفُسَكُمْ غَزَاً كَمَا سَمَّى الْخَوَارِجُ أَنْفُسَهُمْ شُرَاً . « ثُمَّ يَذْكُرُ الْجَاهِظَ حَوَادِثَ طَرِيفَةٍ
 فِي هَذَا الْبَابِ [الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ص ١١٩ - ١٢٠] « حُدِّثَ عَنْ أَحَدِ التَّجَارِ
 الْبَغْدَادِيِّينَ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ بِمَبْلَغٍ لِي وَمَتَاعٍ مِنْ بَغْدَادٍ أُرِيدُ وَاسْطاً . وَكَانَ الْبُرَيْدِيُّ بِهَا
 وَالدُّنْيَا مُفْتَتِنَةً . فَقَطَعَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ وَعَلَى امْكَارِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ لَصٌّ كَانَ فِي الطَّرِيقِ
 يُقَالُ لَهُ ابْنُ هَمْدُونٍ . . . فَأَفْقَرَنِي وَكَانَ مَعْظَمُ مَا أَمْلَكُهُ مَعِيَ . فَسَهَّلَ عَلَيَّ الْمَوْتَ .
 وَطَرَحْتُ نَفْسِي لَهُ . وَكُنْتُ أَسْمَعُ بِبَغْدَادٍ أَنَّ ابْنَ هَمْدُونٍ فِيهِ قِتْوَةٌ وَطَرْفٌ وَأَنَّهُ إِذَا قَطَعَ
 لَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَصْحَابِ الْبِضَائِعِ الْقَلِيلَةِ وَإِذَا أَخَذَ مِنْ حَالِهِ ضَعِيفَةً شَيْئاً قَاسَمَهُ
 عَلَيْهِ فَتَرَكَ شَطْرَ مَالِهِ فِي يَدَيْهِ . وَأَنَّهُ لَا يَفْتَشُ امْرَأَةً وَلَا يَسْلُبُهَا . . . فَأُطْمَعِنِي ذَلِكَ فِي
 أَنْ يَرْقِيَ لِي . فَصَعِدْتُ إِلَى الَّذِي هُوَ فِيهِ جَالِسٍ . فَخَاطَبْتُهُ فِي أَمْرِي وَرَفَّقْتُهُ وَوَعظته
 وَقُلْتُ لَهُ : إِنْ جَمِيعُ مَا أَمْلَكُهُ قَدْ أُخِذَ مِنِّي وَأَنْنِي أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أَتَصَدَّقَ مِنْ بَعْدِهِ .
 فَقَالَ لِي : يَا هَذَا لَعَنَ اللَّهُ السُّلْطَانَ الَّذِي أَحْوَجَنَا إِلَى هَذَا فَإِنَّهُ قَدْ اسْقَطَ أَرْزَاقَنَا فَاحْتَاجْنَا
 إِلَى هَذَا الْفَعْلِ . وَلَيْسَ فِيمَا نَفْعَلُ ارْتِكَابُ أَمْرٍ أَعْظَمَ مِمَّا يَرْتَكِبُهُ السُّلْطَانُ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ
 أَنَّ ابْنَ شِيرَازٍ بِبَغْدَادٍ يُصَادِرُ النَّاسَ وَيُفْقِرُهُمْ حَتَّى يَأْخُذَ الْمَوْسِرَ الْمَكْشَرُ وَيَخْرِجُ مِنْ
 حِسْبِهِ وَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ الصَّدَقَةِ . وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْبُرَيْدِيُّ بِوَسْطِ الْبَصْرَةِ
 وَالْدَّيْلَمِ وَبِالْأَهْوَازِ . ثُمَّ قَالَ : كَمْ أُخِذَ مِنْكَ ؟ فَصَدَّقْتُهُ . فَقَالَ احْضُرْهُ . فَأَحْضُرَ
 وَكَانَ كَمَا ذَكَرْتُ . فَأَعْطَانِي نِصْفَهُ . فَقُلْتُ الْآنَ قَدْ وَجِبَ حَقِّي عَلَيْكَ وَصَارَ لِي
 بِإِحْسَانِكَ إِلَيَّ حُرْمَةٌ . فَقَالَ : أَجَلٌ . فَقُلْتُ إِنَّ الطَّرِيقَ فَاسِدَةٌ وَمَا إِلَّا أَنْتَ تَجَاوِزُكَ حَتَّى
 يُؤْخَذَ هَذَا أَيْضاً . فَاَنْقِذْ مَعِيَ مِنْ يَوْدِيَنِي إِلَى الْمَأْمَنِ . فَفَعَلَ ذَلِكَ وَسَلِمْتُ بِمَا أَقُلْتُ
 مَعِيَ . »

وَوَرَدَتْ فِي الْمَصْدَرِ نَفْسَهُ [ص ١١٧ - ١١٨] حَوَادِثُ مَثِيرَةٌ أُخْرَى مِنْهَا قِصَّةُ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو الْحَارِثِ « قَالَ كُنْتُ مُسَافِراً فِي بَعْضِ الْجِبَالِ . فَخَرَجَ عَلَيْنَا ابْنُ سَيَّارِ
 الْكُرْدِ . فَقَطَعَ عَلَيْنَا . وَكَانَ بَزِيَّ الْأَمْراءِ لَا بَزِيَّ الْقُطَاعِ . فَقَرِبتُ مِنْهُ أَنْظُرَ إِلَيْهِ
 وَأَسْمَعُ كَلَامَهُ فَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى فَهْمٍ وَأَدَبٍ . قَدْ أَخْلَعْتُهُ فَادَا بِرَجُلٍ فَاضِلٍ يَرُوي الشَّعْرَ
 وَيَفْهَمُ النُّحُو . فَطَمَحْتُ فِيهِ . وَعَمَلْتُ - فِي الْحَالِ - أَيْبَاتاً مَدْحَتُهُ بِهَا . فَقَالَ لَسْتُ
 أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ شَعْرِكَ وَلَكِنْ أَعْمَلُ لِي عَلَى قَافِيَةِ هَذَا الْبَيْتِ وَوزنه شعراً السَّاعَةِ
 لَأَعْلَمَ أَنَّكَ قُلْتَهُ . وَأَنْشَدَنِي بَيْتاً . فَعَمَلْتُ فِي الْحَالِ إِجَازَةً لَهُ ثَلَاثَةَ أَيْبَاتٍ فَقَالَ لِي :

أي شيء أخذ منك لأرُدّه عليك ؟ فذكرتُ ما أخذ مني واستصفتُ إليه قماش رفيق كان معي . فردّ جميع ذلك . ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها كيساً فوهبه لي . فجزيتُهُ خيراً ورددته عليه . فقال لي لم تأخذه ؟ فواريتُ في كلامي . قال أحبُّ أن تصدّقني . فقلتُ وأنا آمن !! قال نعم . قلتُ لأنك لا تملكه وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة فكيف يحل لي أخذه ؟ فقال لي : أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب اللصوص عن بعضهم ؟ قال : أن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجردوا فتركهم فصارت أموالهم بذلك مُستهلكة . واللصوص فقراء إليها . فإن أخذوا أموالهم - وإن كره التجار أخذها - كان ذلك مباحاً لهم لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا . فقلتُ بلى قد ذكر ذلك الجاحظ . ولكن من أين تعلم أن هؤلاء ما استهلكت الزكاة أموالهم ؟ قال لا عليك . أنا أحضر هؤلاء التجار الساعة وأريك بذلك دليلاً صحيحاً أن أموالهم لنا حلال . ثم قال لأصحابه هاتوا التجار . فجاءوا بهم . فقال لأحدهم : منذ كم تتجرّ في هذا المال الذي قطعناه عليك ؟ قال منذ كذا وكذا سنة . قال : فكيف كنت تخرج زكاته ؟ فتلجج وتكلّم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يخرجها . ثم دعا بآخر . . . فما أحسن الجواب . . . ثم دعا بآخر . . . فما فهم السؤال فضلاً عن تعاطي الجواب . . . فصرّفهم . . . ثم قال لي بأن لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ . . . خُذ الكيس . فأخذته . . . »

وحادثة طريفة أخرى رواها الجاحظ [المصدر نفسه] عن أحد قضاة بغداد أنه قال « لما كنتُ مقيماً بالكركخ اتقلد القضاء بها . » كان معي رجل له ابن صبي . فأقام معي أبوه عشر سنين . وكان الصبي يدخل داري ويمرح مع غلمانني . . ثم صرفتُ عن الكركخ ورحلتُ ولم أعرف للرجل ولا لابنه خبراً ، حتى مضت السنون . فأنقذني عبدالله البريدي من واسط برسالة الى أبي بكر بن رائق . . فخرج علينا اللصوص في سفن عدة . . . وإذا بسفينة فيها رئيسهم . . فلما رأني منع أصحابه من انتهاب شيء مني . . . وصعد وحده إلي فتأمّلني ثم انكبّ فقبّل يدي . وكان مثلياً فلم أعرفه . فارتعتُ وقلتُ يا هذا ما لك ؟ فقال لي أما تعرفني يا سيدي ؟ فتأمّلته - وأنا جزع - فلم أعرفه . فقلتُ لا والله . قال بلى وأنا عبدك بن فلان الكرخي حاجبك وأنا الصبي ربّيتُ في دارك . . . فسكن روعي وقلتُ يا هذا كيف بلغت الى هذه الحال ؟ قال نشأتُ فلم أتعلّم غير معالجة السلاح وجئتُ الى بغداد

أطلب أن يدان فما قبلني أحد . فانضمتُ الى هؤلاء وطلبتُ الطريق . فلو كان انصفني السلطان ونزّلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلتُ هذا . »

ومن أطرف حيل السرّاق في الليل ما ذكره الجاحظ [المصدر نفسه ص ١٢٣ - ١٢٥] عن رجل قال « كنتُ نافذاً بالأبلة لرجل تاجر فاقتضيتُ له من البصرة نحو الخمسمائة دينار عيناً وورقاً ولقفتُها في فوطة وأردتُ السفر مساء الى الأبلة . فما زلتُ أطلب ملاحاً فلم أجد الى ان رأيتُ ملاحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة فسألته ان يحملني . فسهّل عليّ الاجرة . . . وجعلتُ الفوطة بين يدي . . . وسرنا . . . فاذا رجلٌ ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون . . فصاح بالملاح احملي . . فشمته الملاح . . . فقلتُ يا هذا احمله فدخل الى الشط وحمله . فلما حصل معنا رجع الى قراءته فخلب عقلي بطيئها . فلما قَرَبنا من الأبلة . قطع القراءة وقام ليخرج في بعض الشارع الى الابلة . فلم أرَ الفوطة . فقمْتُ واقفاً فاستغاث الملاح وقال الساعة تُقَلَّب الخيطية . وخاطبني بخطاب من لا يعلم بحالي . . فقلتُ يا هذا كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار . فلما سمع بكى . وقال لم أدخل الشط بعد ولا لي مواضع اخبيء فيها شيئاً فتتهمني بالسرقة ولي أطفال وأنا ضعيف فاتقُ الله . . وفعل الضرير مثل ذلك . . فرجحتُ وقلتُ هذه محنة . . وأخذ كل منا طريقه . . وأنا أمشي وأتعثر إذ اعترضني رجل . . فأخبرته . . فقال امض الى السجن . . وسل عن رجل محبوبس يقال له أبو بكر البغّاش . . فجئته فقال امض الساعة الى بني هلال . . فانك تشاهد باباً شعباً فافتحه وأدخله بلا استئذان . . وقل لمن فيه خالي أبو بكر البغّاش يقول ردوا على ابن اختي الفوطة . . فخرجت . . فردتُ الفوطة عليّ بعينها . . ورأيتُ الملاح وصاحبه فقلتُ كيف فعلتما ؟ فقال الملاح أنا أدور الشارع في أول أوقات المساء وقد سُبِقْتُ بهذا المتعامي فاجلسه حيث رأيتُ . فاذا رأيتُ من معه شيئاً له قدر ناديته وأرخصتُ عليه وحملته . فاذا بلغت القاريء المتعامي وصاح شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة ساحتي . فان حملة الراكب فذاك . وإن لم يحمله رَقَعْتُ عليه حتى يحمله . . فاذا بلغنا الموضع الفلاني فأن فيه رجلاً متوقعاً لنا يسبح حتى يلاصق السفينة وعلى رأسه قوصرة . والراكب لا يفتن له . فيأخذ المتعامي الشيء الذي مع الراكب بحيلة خفية ويلقيه في القوصرة . فيأخذ هذا ويسبح الى الشط . فاذا أراد الراكب النزول وافتقد ما معه عملنا كما رأيت فلا

يتهمنا . وننفرك . فإذا كان في الغد اجتمعنا فاقسمنا ما أخذناه . واليوم كان يوم
الفسحة - فلما جئت برسالة استاذنا سلمنا اليك القوطة . لا شك في أن الجوانب
السايكولوجية العميقة التي تنطوي عليها هذه الحيلة الطريفة واضحة للعيان .

وفي اختتام هذا البحث الموجز عن الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ
نود أن نقطف فقرات ممتعة ذات محتوى سايكولوجي ورد بعضها في رسالته الموسومة
« فصل ما بين العداوة والحسد . » كما وردت في كتاب رسائل الجاحظ (مكتبة
الخانجي بالقاهرة / ١٩٦٢ ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٤٣) . والمقصود هنا بكلمة « فصل »
« فرق » ما بين العداوة والحسد . وقد ثبت أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل
عنوانها « رسالة الحاسد والمحسود » . ويبدو أن الرسالة المشار إليها قد ألفها الجاحظ
لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل . أمّا الفقرات الأخرى التي
ستكون نهاية بحثنا هذا فمقتبسة من رسالة ابتدعها الجاحظ عنوانها « رسالة في
صناعة القواد » (المصدر السابق ١ ص ٣٧٩ - ٣٩٣) وزعم - دون سند تاريخي - أنه
رفعها الى المعتصم في الحضيض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب .
وفيها يتجلى ظرف الجاحظ وهزله ودعابته . كتب الجاحظ في رسالة : فصل ما بين
العداوة والحسد (ص ٣٣٨ - ٣٤٣) « أنه لم يحلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من
القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محقون . . . فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون
الآداب لأهل زمانهم . . . ولهم حساد معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم
والكتب يدعون مثل دعاويهم . . . فاستألوها - بهذه الحيلة - قلوب ضعفاء العامة
وجهلاء الملوك واتخذهم المعادون للعلماء المحققين عُدَّةً يستظهرون بهم هذه
العامة . . . وجراهم على ذلك ما رأوا من ميل جهلاء الملوك منهم عليهم . . .
ولست آمن - جعلني الله فداك - ان تكون هذه الكتب التي أعني بتأليفها وأتأنق في
ترصيفها يتولى عرضها عليك من قد ليس لباس الزور في انتحال وضع مثلها . . . بل
لا آمن أن يتجاوز ذلك الى الطعن عليها بقول أو إشارة فيوهم فساد معانيها ويومي
الى سقوط ألفاظها . . . وليس يقابله أحد برد . . . قال بشر المريسي عرض كتابي
على المأمون في تحليل النبيذ وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي . فانبرى
للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه وأسهب في ذلك وخطب وأكثر وأطنب .
فقلق المأمون واحتدم وهاج واضطرم . . . فلما لم ير أحداً بحضرته يذب عن كتابي
قال متمثلاً :

يا لك من قُبرة بمَعْمَرٍ خَلَّالِكَ الجَوْفِيضِي واصفري
وتقرِّي ما شئت ان تنفري

فما كان إلَّا رَيْثُ فراغه من التمثُّل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي فدخلتُ عليه . فقال: يا أبا عبد الرحمن ما تقول في النيذ؟ قلتُ حلُّ طلق يا أمير المؤمنين . . . فقال ان محمداً يخالفك . فأقبلتُ على أبي العباس فقلتُ له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال لا خلاف بيني وبينك . . . كلاماً يوهم به أهل المجلس حباً للتسلُّم مني والتخلُّص من مناظرتي لأعلى حقيقة التحليل . . . فأطنبتُ في معاني تحليل النيذ وابن أبي العباس ساكت لا ينطق . . . وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . . . ويستطرد الجاحظ فيقول (ص ٣٥٠-٣٥١) « وإني ربما الفتُ الكتاب للمحكَّم المتضمن . وأنسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم للحسد المركَّب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاعته . وأكثرُ ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والخطُّ والرفع والترغيب والترهيب فانهم يحتاجون عند ذلك اِحتياج الابل المغتملحة . . فان أمكنهم حيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألفَ له فهو الذي قصده وأرادوه وإن كان السيد المؤلفُ فيه الكتاب تحريراً ، نقاباً وتقرباً بليغاً وحاذقاً فطناً - وأعجزتهم الحيلة - سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من أغراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى تلك آخر ومشوا اليه به وهم قد ذمُّوه وقلبوه لما رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي . . . وربما الفتُ الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على مَنْ تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلَّم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم - الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب - لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ . ويكتبونه بخطوطهم ويضربونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدَّبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رياسة وبأتم بهم قوم فيه . . . ولربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة وألفاظ شريفة قصيرة فأخاف عليه طعن الحاسدين إن أنا نسبته الى نفسي واحسد عليه مَنْ أهتم بنسبته اليه لجودة نظامه وحسن كلامه فأظهره مبهماً عُفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف وقاعها فينهالون عليه انهبال الرَّمْل ويستبقون الى قراءة سياق الخيل يوم الحلبَة الى

غايته . »

وكتب الجاحظ في رسالة : في صناعات القواد . (المصدر السابق ص ٣٧٩ - ٣٩٣) ما يلي :

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : « دخلتُ على أمير المؤمنين المعتصم فقلتُ له : يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصال فهو أداة يظهر بها البيان وشاهد يخبر عن الضمير وحاكم يفصل بين الخطاب وناطق يردُّ به الجواب وشافعٌ تُدرك به الحاجة وواصفٌ تُعرف به الأشياء وواعظٌ يُعرف به القبيح ومُعزٌّ يردُّ به الأحزان وخاصةٌ يزهي بالصنعة ومُلة الأسع . . فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل أدب فانك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه . . . وذلك أني لقيتُ حزاماً حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم فسألته عن الحرب كيف كانت هناك - وهو صاحب خيلك - فقال - لقيناهم من مقدار صحن الاضطبل فما كان إلا بمقدار ما يحسُّ الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرعة . . .

وعمل أبياتاً في الغزل :

إن يهدم الصَّدُّ من جسمي معالِفَه
فإن قلبي بقَتَّ الوجد معمورٌ
إنني امرؤ في وثاق الحب يكبحه
لجامٌ هجرٍ على الأسقام معذورٌ

. . . قال وسألتُ بختيشوع - الطبيب - عن مثل ذلك فقال : لقيناهم في مقدار بیمارستان . فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم في أضيق من محقنة . فلو طرحت ميضعاً ما سقط إلا على رجل . وعمل أبياتاً في الغزل . . .

شرب الوصل دسبح الهجر فاستطلق بطن الوصال بالإسهال
ورماني حيي بقولنج بين مذهل عن ملامة العذال

. . . قال وسألت جعفر الخياط فقال : لقيناهم في مقدار سوق الخلقان . فما كان بقدر ما يحيط الرجل درّاء حتى قتلناهم في أضيق من جربان جيب القميص .

فلو طُرِحَتْ إبرة فاسقطت إلا على رأس رجل... وعمل أبياتاً في الغزل...

فَتَقَّتْ بِالْهَجَرِ دُرُوزَ الْهَوَى	اذ وَخَزْتَنِي إِبْرَةَ الصَّدِّ
فَالْقَلْبُ مِنْ ضَيْقٍ سَرَاوِيلِهِ	يَعْتَبِرُ فِي بَابِكَةِ الْجَهْدِ
خَشِمْتَنِي طَلْسَانَ الْهَوَى	مَنْكَ عَلَى شَوْزَكْتِي وَجَدِي
أَزْرَارَ عَيْنِي فِيكَ مَوْصُولَةٌ	بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ عَلَى خَدِّي
قَدْ قَصَّ مَا يَعْهَدُ مِنْ وَصْلِهِ	مَقْرَاضُ بَيْنِ مُرْهَفِ الْحَدِّ

.... قال وسألت اسحق بن ابراهيم عن مثل ذلك - وكان زراعاً فقال :

لقيناهم في مقدار جريين من الأرض حتى قتلناهم . . فتركناهم في أضيق من باب
وكأنهم أنابير سنبل . فلو طُرِحَ فدان ما سقط إلا على ظهر رجل... وعمل أبياتاً في
الغزل...

زَرَعْتُ هَوَاةً فِي كِرَابٍ مِنَ الصَّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ
فَلَمَّا تَعَالَى النَّبْتُ وَاخْضَرَ يَانَعًا جَرَى يَزْفَانُ الْبَيْنِ فِي سُنْبُلِ الْوَدِّ

... قال وسألت فرجا الراجحي عن مثل ذلك - وكان خبازاً - فقال لقيناهم في
مقدار بيت التُّور . فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم في أضيق
من حجر تُورُفلو سقطت حجرة ما وقعت إلا في حَفْنَةِ خَبَازٍ... وعمل أبياتاً في
الغزل..

قَدْ عَجَنَ الْهَجْرُ دَقِيقَ الْهَوَى	فِي جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ
وَاخْتَمَرَ الْبَيْنُ فَنَارَ الْهَوَى	تَذَلَّى بِسَرْجِينَ مِنَ الْبُعْدِ
وَاقْبَلَ الْهَجْرَ بِمَحْرَائِهِ	يَفْحَصُ عَنْ أَرْغَفَةِ الْوَجْدِ

... قال وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي دؤاد عن مثل ذلك - وكان
مؤدباً - فقال لقيناهم في مقدار صحن الكُتَّابِ حتى الجأناهم الى أضيق من رقم
فقتلناهم فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في حجر صبي... وعمل أبياتاً في
الغزل...

لَقَدْ أَمَاتَ الْهَجْرَانُ صَبِيحَانَ قَلْبِي فَفَوَّادِي مُعَذَّبٌ فِي خَبَالِ

... قال وسألت عن بن الجهم بن يزيد وكان صاحب حمام - عن مثل ذلك -

فقال لقيناهم في مثل بيت الأنبار فما كان إلا بقدر ما بغسل الرجل رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون . فلو طُرِحَتْ ليفة ما وقعت إلا على رأس رجل . . .

وعمل أبياتاً في الغزل :

يا نورة الهجر حَلَقْتَ الصِّفاً لما بَدَتْ لي ليفة الصَّدِّ
يا مئزر الاسقام حتى متي تُنْقَع في حوضٍ من الجَهْدِ
أوقد اتونَ الوصل الى مرةً منك زنبيل من الودِّ
فيا بَيْنُ مذ أوقدَ حمامة قد هاج قلبي مسلخُ الوجدِ

. . . قال وسألت الحسن بن أبي قهاشة عن مثل ذلك - وكان كناساً . فقال :
لقيناهم في مقدار سطح الايوان فما كان إلا بقدر مايكنس الرجل زنبيلاً حتى تركناهم في أضيق . . . ثم قتلناهم . . . وعمل أبياتاً في الغزل . . .

خنافس الهجران اشكلتني يوم قولي مُعْرِضاً صبري
قال وسألت أحمد الشَّرايبي عن مثل ذلك فقال : لقيناهم في مقدار صحن بيت
الشَّراب فما كان بقدر ما يقتضي الرجل دناً في أضيق من رطيلة فقتلناهم فلو رميت
تفاحة ما وقعت إلا على أنف سكران . . . وعمل أبياتاً في الغزل . . .

شربت بكأس للهوى نيره معاً ورقوقت خمرة الوصل في قدح الهجر
فمالت بدنائه الين يدفعها الصبا فكسرت قرابات حزني على صدري

. . . قال وسألت عبد الله بن طاهر عن مثل ذلك وكان طباحاً فقال لقيناهم في
مقدار صحن المطبخ مما كان بقدر ما يشوي الرجل حملاً حتى تركناهم في أضيق من
موقد فقتلناهم فلو سقطت مغرفة ما وقعت إلا في قِدْر . . . وعمل أبياتاً في الغزل . . .

يا شبيه الغالوذ في حمرة الخد ولو زينج النفوس الظمَاء
يا نسيم القدور في يوم عرس وشبيهاً بشهادة صفراء
أطعم الحاسدون الوانَ غَمٍّ في قصاع الأحزان والأدواء
قد غلا الغلب مُدْنَأَتْ عنك داري غليان القدور عزَّ الصَّلَاء

. . . قال وسألت - أطال الله بقاءك - محمد بن داود الطوسي عن مثل ذلك
وكان فَرَّاشاً فقال لقيناهم في مقدار صحن بساط مما كان إلا بمقدار ما يفرش الرجل

بيتا حتى تركناهم في أضيق من منصة فقتلناهم فلو سقطت فخذة ما وقعت إلا على رأس رجل... ثم عمل أبياتا في الغزل...

نَسَجَ الهجرُ ساحة الوصل لَمَّا غَيْرَ اليمين في وجوه الصِّفاء
فَرَشَ الهجر في بيوت هموم نَحَتَ رأس وسادة البُرْجاء

... قال فضحك المعتصم متى استلقى ثم دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم».

- ١٨ -

تلك هي - بنظرنا - المعالم الكبرى للجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ التي هي تعبير دقيق عن الملامح العامة لسلوكه وعلاقاته الاجتماعية بالآخرين التي هي بدورها نتاج عصره ومجتمعه بعد التحليل الدقيق . والعلاقات الاجتماعية المشار إليها لا تخلو - كما لاحظنا - من المواربة أو المداجاة التي تصبغ سلوك غالبية الناس في كل زمان ومكان مع اختلاف في الدرجة وذلك بفعل ظروف اجتماعية قاهرة لا سيطرة لهم عليها . وهذا يذكرنا ان الأمين قال مرة لأبي فؤاد : اذا قلت في الخصيب :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابنا فأيُّ فتى بعد الخصيب تزور
فماذا أبقيت لي؟ قال قولي يا أمير المؤمنين :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما ثني وفوق الذي ثني
وإن جرت الألفاظ يوماً بمِدْحَةٍ لغير انسان فأنت الذي نعني

(١١) تتجلى روعة كتاب البخلاء للجاحظ إذا ما قورن بكتاب البخلاء لأبي بكر أحمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي المتوفي ٤٦٣ هـ الذي عثرت على نسخة مخطوطة له في مكتبة المتحف البريطاني وصورتها حبذا لو ساعدت وزارة الثقافة والإعلام على نشرها - في حالة كونها لم تنشر سابقاً - .

أهم مصادر البحث

- ١ - الجاحظ / كتاب الحيوان / مكتبة مصطفى البابي الحلبي : القاهرة / ١٩٣٨ .
- ٢ - الجاحظ / كتاب البيان والتبيين / مكتبة الجانجي / ١٩٦٠
- ٣ - الجاحظ / المحاسن والأضواء / القاهرة / مطبعة / سعادة / ١٣٢٤ هـ
- ٤ - الجاحظ / في الرد على النصارى / المطبعة السلفية / القاهرة / ١٣٨٢ هـ
- ٥ - الجاحظ / كتاب التبصر بالتجارة / دمشق / دار الكتاب الجديد / ١٩٦٦
- ٦ - الجاحظ / في ذم أخلاق الكتاب / المطبعة السلفية / القاهرة / ١٣٨٢ هـ
- ٧ - الجاحظ / التاج في أخلاق الملوك / القاهرة / المطبعة الأميرية / ١٩١٤ .
- ٨ - الجاحظ / البخلاء / القاهرة / دار المعارف / ١٩٦٢ وأيضاً منشورات مكتبة العرفان / بيروت ١٩٥٥
- ٩ - الجاحظ / فلسفة الجد والهزل / بيروت / منشورات حمد
- ١٠ - الجاحظ / الترييع والتدوير / المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٥٥ وأيضاً الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت ١٩٦٩
- ١١ - الجاحظ / مفاخرة الجوارى والغلمان / بيروت دار الكشف / ١٩٥٧
- ١٢ - الجاحظ / فخر السودان على البيضان / مطبعة السنة المحمدية / القاهرة / ١٩٦٤
- ١٣ - الدكتور حاتم صالح الضامن / ما لم ينشر من تراث الجاحظ / وزارة الثقافة والإعلام / بغداد ١٩٧٩ .
- ١٤ - ياقوت / معجم الأدباء / الجزء الثالث (٧٤ - ١١٤)
- ١٥ - ابن خلكان / وفيات الأعيان / دار الثقافة / بيروت المجلد الثالث ص ٤٧٠ - ٤٧٥
- ١٦ - القالي / الأمالي / المطبعة التجارية / القاهرة / ١٩٥٤
- ١٧ - الثعالبي / يتيمة الدهر / القاهرة / مطبعة السطادة / ١٣٧٧ هـ
- ١٨ - ابن قتيبة / المعارف / القاهرة / مطبعة دار الكتب / ١٩٦٠
- ١٩ - ابن الأثير / المثل السائر / القاهرة / مكتبة نهضة مصر / ١٩٦٢
- ٢٠ - ابن الأثير / الكامل في التاريخ
- ٢١ - أبو هلال العسكري / ديوان المعاني القاهرة / مكتبة القوسي / ١٣٥٢ هـ
- ٢٢ - الحائري / الدكتور طه / الجاحظ

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣٣٨

لسنة ١٩٨١
